

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

مكية وهي تسع وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَمَّ﴾ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ .

﴿الْعَمَّ﴾ الكلام فيه كالذي مرَّ. ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ﴾ الحسبانُ: الظَّنُّ، نزلت في قوم من المؤمنين، كان كفار مكة يؤذونهم ويعذبونهم، فكانت صدورهم تضيق لذلك، فتداركهم الله بالتسلية بهذه الآية، وحكمها عام في جميع البشر ﴿أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾؟ أي أحسبوا أنفسهم متروكين بلا فتنة، بقولهم ﴿آمَنَّا﴾ والمعنى: إنكار الحسبان المذكور، وتحقيق أنه تعالى يمتحنهم بمشاق التكاليف، كالمهاجرة والمجاهدة، ورفض ما تشتهيه النفس، وفنون المصائب في الأنفس والأموال، ليتميز المخلص من المنافق، ويجازيهم بحسب أعمالهم.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ أي اختبرنا ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فالابتلاء سُنَّةٌ قديمة، مبنية على الحكم والمصالح، جارية بين الأمم كلها فإن الأمم الماضية، قد

أصابها من ضروب الفتن والمحن، ما هو أشد مما أصاب هؤلاء فصبروا فمنهم من يوضع المنشار على رأسه، فيفرق نصفين، ومنهم من يُمشط بأمشاط الحديد، ما يصرفه ذلك عن دينه ﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في قولهم آمنا ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ﴾ في ذلك، أي فوالله ليميزن الله بين الصادق والكاذب، بين الذين صدقوا في الإيمان، والذين هم كاذبون فيه، ويرتب عليه أجريتهم من الثواب والعقاب.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ ﴿٤﴾

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ الكفر والمعاصي، فإن العمل يعلم أفعال القلوب، والجوارح ﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾؟ أي يفوتونا، فلا نقدر على مجازاتهم بمساوى أعمالهم ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بس الذي يحكمونه؟! فإنه سبحانه يعذب ويثيب، بحكم الوعد والإيعاد، والإمهال لا يفضي إلى الإهمال.

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٥﴾

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ ﴾ أي يتوقع ملاقاته جزائه، ثواباً أو عقاباً، وملاقاته حكمه يوم القيامة، والمشهور في الرجاء هو توقع الخير لا غير ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ أي الوقت المضروب للقاءه ﴿لَآتٍ﴾ لا محالة والجواب محذوف، أي فليختر من الأعمال ما يؤدي إلى حسن الثواب كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لأقوال العباد ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم الظاهرة الباطنة، وفيه من الوعد والوعيد ما لا يخفى.

﴿ وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٦﴾

﴿ وَمَنْ جَاهَدَ ﴾ في طاعته تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ﴾ لعود منفعتها إليها ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أي لا حاجة له إلى طاعتهم، وإنما أمرهم بمجاهدة الهوى والشیطان لمنفعتهم.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٧﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي نمحو الكفر بالإيمان، والمعاصي بالتوبة ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام، والآية تدل على أن الأعمال داخلة فيما هو المقصود من الإيمان، لأن تكفير السيئات معلق عليها، وهي ثمرة الإيمان، ومثال هذا شجرة مثمرة لا شك أن عروقها، وأغصانها منها، والماء الذي يجري عليها والتراب حوالها غير داخل فيها، لكن الثمرة لا تحصل إلا بهما.

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٨﴾ .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ أي أمرناه بأن يفعل بهما ما يحسن من المعاملات، فإن «وصى» تجري مجرى «أمر» معنى وتصرفاً، يقال: وصيت فلاناً بكذا، أي أمرته بتعهده ومراعاته ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ أي بالوهيته، عبّر عن نفيها بنفي العلم بها، للإيدان بأن ما لا يعلم صحته، لا يجوز اتباعه، وإن لم يعلم بطلانه، فكيف بما علم بطلانه؟ ﴿ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ في ذلك، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ ﴾ أي مرجع من آمن منكم، ومن أشرك، ومن برّوا واتلديه ومن عبّ ﴿ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بأن أجازي كلاً منكم بعمله إن خيراً فخير،

وإن شراً فشر، وفيه لطيفة، وهي أن الله تعالى يقول: لا تظنوا أنني غائب عنكم، بل أنا حاضر معكم، وأعلم ما تفعلون، فأنبئكم بجميعة. روي أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما أسلم، وكان باراً بأبويه، قالت له أمه: ما هذا الذي أحدثت؟ والله لا آكل، ولا أشرب، حتى ترجع إلى ما كنت عليه، ولبثت ثلاثة أيام، فقال لها: «يا أماه والله لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً، لا أترك ديني لشيء أبداً، فإن شئت فكلني، وإن شئت فدعي، فلما يئست منه أكلت وشربت»^(١) ففيه نزلت هذه الآية الكريمة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أي في زمرة الراسخين في الصلاح، وهو منتهى درجات المؤمنين.

﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾

﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ أي في سبيله بأن عذبهم الكفرة على الإيمان ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ أي ما يصيبه من أذيتهم ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ في الشدة والهول، فيرتد عن الدين، ولا يصبر عليه، وما علم أن تعذيب الناس لا يكون مديداً، وعذاب الله مديد، وأن المشقة إذا كانت

(١) انظر أسباب النزول للواحي ص ١٩٥ وصفوة التفسير ٤٥١/٢ وقد روى الترمذي قصة سعد في سننه ٣١٩/٥ وقال: حديث حسن صحيح، وفيه قال: «فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها، شَجَرُوا فَاها - أي فتحوا فمه - فنزلت هذه الآية ﴿وَوَحَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا...﴾ الآية.

مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ﴿وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي فتح وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ بضم اللام ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي متابعين لكم في الدين، فأشركونا في المغنم، وهم ناس من ضعفة المسلمين، كانوا إذا مسَّهم أذى الكفار وافقوهم على الضلال، وكانوا يكتُمونه من المسلمين، فردَّ الله عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾؟ أي بأعلم منهم بما في صدورهم، من الإخلاص والنفاق.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالإخلاص ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ أي ليجزيهم بما لهم من الإيمان والنفاق.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بيان لحملهم للمؤمنين على الكفر بالاستمالة، أي قالوا مخاطبين لهم ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ أي اسلكوا طريقنا التي نسلكها في الدين ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ أي إن كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها، وهذا قول صنديد قريش لمن آمن، فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ «من» الأولى للتبيين، والثانية مزيدة، والتقدير وما هم حاملين شيئاً من خطاياهم التي التزموا أن يحملوها كلها ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ حيث أخبروا بأنهم قادرون على إنجاز ما وعدوهم به.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْفَالًا مَّعَ أَنْفَالِهِمْ وَلَيَسْئَلَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿ وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ بيان لما يستتبعه قولهم ذلك في الآخرة، من المضرة لأنفسهم، بعد بيان عدم منفعته لمخاطبيهم، والتعبير عن الخطايا بالأثقال، للإيدان بغاية ثقلها، وكونها فادحة، واللام جواب قسم محذوف، أي وبالله ليحملنَّ أثقال أنفسهم كاملة، وأثقالاً أخرى مع أثقالهم، لأنهم تسببوا بالإضلال، من غير أن ينقص من أثقال من أضلوه شيء، وفي الحديث الشريف «من سنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها، ووزرُ من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»^(١) ﴿ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ سؤال تفرغ ﴿ عَمَّا كَانُوا يَفْعُرُونَ ﴾ أي يختلقون في الدنيا من الأكاذيب والأباطيل، التي من جملتها كذبهم هذا.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ شروع في بيان فتنة الأنبياء عليهم السلام بأذية أممهم، إثر بيان، فتنة المؤمنين بأذية الكفار، تأكيداً للإنكار على الذين يحسبون أن يتركوا، بمجرد الإيمان بلا ابتلاء، أي ولقد بعثنا رسولنا نوحاً إلى قومه الضالين ﴿ فَلَبِثَ ﴾ أي أقام ومكث ﴿ فِيهِمْ ﴾ أي فيما بينهم ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله جلَّ وعلا كأنه جلَّ وعلا قال: مكث بينهم تسعمائة وخمسين سنة، وهذه المدة الطويلة التي عاشها كانت معجزة له عليه السلام، لأن البشر لا يعيشون مثلها، ولمَّا أدركته الوفاة، قيل له: كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدار لها بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر ﴿ فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ ﴾ عقيب نهاية المدة المذكورة، والطوفان يطلق على كل ما يطوف بالشيء، على كثرة

(١) هذا طرف من حديث طويل في قصة الأعراب الفقراء مجتابي النار، وحث النبي ﷺ لأصحابه على الصدقة، وقد أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٢٦٧٤ فانظره بكامله هناك.

وشدة، من المسيل، والريح، وقد غلب على طوفان الماء ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي والحال أنهم مستمرّون على الظلم، لم يراعوا عما هم عليه من الكفر والمعاصي.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٥﴾

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ أي نوحاً عليه السلام ﴿وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ﴾ أي من ركب فيها معه من أولاده وأتباعه، وكانوا ثمانين، نصفهم ذكور ونصفهم إناث ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ أي الحادثة ﴿آيَةً﴾ أي عبرة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ يتعلّقون بها.

﴿وَإِذْ هَبْنَا دَاوُودَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٦﴾

﴿وَإِذْ هَبْنَا﴾ نصب بالعطف على نوحاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أي أرسلناه حين تكامل رشدّه، وترقى من مرتبة الكمال، إلى مرتبة التكميل، حيث تصدّى لإرشاد الخلق إلى طريق الحق ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده ﴿وَأَتَّقُوهُ﴾ أن تشركوا به شيئاً ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي ما ذكر من العبادة والتقوى ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي مما أنتم عليه ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير والشر، وتميّزون ما هو نافع ممّا هو ضار.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٧﴾

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ أي إنما تعبدون من دونه تعالى أوثاناً، هي في نفسها تماثيل وصور مصنوعة لكم، ليس فيها وصف غير ذلك ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي تكذبون كذباً حيث تسمونها آلهة ﴿إِنَّ الَّذِينَ

تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿ أَي هَذِهِ الْأَوْثَانُ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا ﴾ أَي لَا تَقْدِرُ عَلَى أَنْ تَرْزُقَكُمْ شَيْئاً مِنَ الرِّزْقِ ﴿ فَأَبْغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ ﴾ كُلُّهُ فَإِنَّهُ هُوَ الرِّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ ﴿ وَأَعْبُدُوهُ ﴾ وَحْدَهُ ﴿ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾ عَلَى نِعَمَائِهِ، مُتَوَسِّلِينَ إِلَى مَطَالِبِكُمْ بِعِبَادَتِهِ، مُقْتَدِينَ لَهَا بِالشُّكْرِ، لِأَنَّهُ الْمَنْعَمُ عَلَيْكُمْ بِالرِّزْقِ ﴿ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أَي بِالمَوْتِ، لَا إِلَى غَيْرِهِ .

﴿ وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَّرٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

﴿ وَإِنْ تَكْذَبُوا ﴾ أَي وَإِنْ تَكْذَبُونِي فِيمَا أَخْبَرْتَكُمْ مِنَ الْبَعْثِ ﴿ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَّرٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ تَعْلِيلٌ لِلْجَوَابِ، أَي فَلَا تَضْرِبُونَنِي بِتَكْذِيبِكُمْ، فَإِنَّ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْأُمَّمِ قَدْ كَذَبُوا الرُّسُلَ، فَلَمْ يَضْرِبْهُمْ تَكْذِيبُهُمْ شَيْئاً، وَإِنَّمَا ضَرَبُوا أَنْفُسَهُمْ، حَيْثُ تَسَبَّبُوا لِحُلُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أَي وَلَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا تَبْلِيغُ أَوْامِرِ اللَّهِ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ هِدَايَةُ النَّاسِ .

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۗ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ﴾ الْوَاوُ لِلْعَطْفِ عَلَى مُقَدَّرٍ، أَي أَلَمْ يَنْظُرُوا وَيَعْلَمُوا، عِلْماً جَارِياً مُجْرَى الرُّؤْيَةِ فِي الظُّهُورِ، كَيْفِيَّةِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى ابْتِدَاءً لِلبَشَرِ مِنَ الْعَدَمِ ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ أَي ثُمَّ يَرْدُّهُ إِلَى الْوُجُودِ بَعْدَ الْفَنَاءِ، لِيَسْتَدْلُوا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ عَلَى الْإِعَادَةِ فِي الْحَشْرِ؟ ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ أَي مَا ذُكِرَ مِنَ الْإِعَادَةِ ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ إِذْ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى شَيْءٍ، فَإِنَّ مِنْ نَحْوِ حِجَارَاتٍ، وَوَضَعَ شَيْئاً بَجَنْبِ شَيْءٍ فَفَرَّقَهَا ثُمَّ أَرَادَ إِعَادَتَهَا، فَإِنَّ إِعَادَتَهَا أَمْرٌ يَسِيرٌ عَلَيْهِ .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ﴾ أي سيروا فيها فانظروا كيف بدأ الله الخلق، أي كيف خلقهم ابتداءً على أطوار مختلفة، وطبائع متغايرة، مع اختلاف الأشكال، والصور، والألوان، ثم هو تعالى ينشئهم عند البعث نشأة أخرى، كما بدأهم يعيدهم، والتعبير عن الإعادة بالنشأة الآخرة، المشعرة بكون البدء نشأة أولى، للتنبية على أنهما شأن واحد من شؤون الله تعالى، لا فرق بينهما إلا بالأولية، والآخرة ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تعليل لما قبله، أي لا يعجزه شيء، فهو المحيي المميت، القادر القاهر، الذي يقول للشيء كن فيكون.

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾.

﴿ يُعَذِّبُ ﴾ أي بعد النشأة الآخرة ﴿ مَن يَشَاءُ ﴾ أن يعذبه، وهم المنكرون للبعث ﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ﴾ أن يرحمه وهم المصدقون بقاء الله ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ أي تردون أو ترجعون للحساب والجزاء لا إلى غيره.

﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾.

﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ له تعالى عن إجراء حكمه عليكم ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أي في التواري في الأرض، أو بالتحصن في السماء، التي هي أفسح منها لو استطعتم الرقي فيها؟ كما في قوله تعالى: ﴿ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ ﴾

أَنْ تَنْقُذُوا مِنْ أَفْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانقُذُوا ﴿١﴾ ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يحرسكم بما يصيبكم من بلاء .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ ﴾ أي بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالة على ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ وَلِقَائِهِ ﴾ أي بالبعث والنشور الذي تنطق به تلك الآيات ﴿ أُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر من الكفر بآياته ﴿ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي ﴾ أي ييأسون منها يوم القيامة، فإنهم لما أشركوا، أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة، وصيغة الماضي للدلالة على تحقيقه ﴿ وَأُولَئِكَ ﴾ الموصوفون بالكفر وبالئس ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يُقَادِرُ قَدْرَهُ بِكُفْرِهِمْ .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ ليس المراد أنه لم يصدر عنهم إلا هذه المقالة، كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم، بل إن ذلك هو الذي استقرَّ عليه جوابهم، بعد الجدل والمحاورة، وإلا فقد صدر عنهم من الخرافات والأباطيل ما لا يحصى، والقائلون هم الرؤساء أي قالوا لأتباعهم ذلك ﴿ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ ﴾ تعالى ﴿ مِنَ النَّارِ ﴾ أي فألقوه في النار، فأنجاه الله تعالى منها، بأن جعلها برداً وسلاماً على إبراهيم، كما بيّنه تعالى في موطن آخر ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي في إنجائه منها ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عجيبة، منها حفظه تعالى من حرّها، وإخمادها في زمان يسير، وإنشاء

(١) سورة الرحمن، آية: ٣٣ .

روضة في مكانها ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدّقون بكمال قدرة الله، وخصّ المؤمنين بالذكر، لأنهم هم المنتفعون بالتأمل فيها، وأما من عداهم فهم عنها غافلون.

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام مخاطباً لهم ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ ﴾ أي من أجل أن تدوم المحبة والألفة بينكم ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي في هذه الحياة الدنيا، على عبادتها ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ تنقلب الأمور، فتصبح المودة تباغضاً ﴿ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ أي الإنسان يكفر بالأوثان، ويتبرأ القادة من الأتباع ﴿ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم ﴾ أي يلعن الأتباع ﴿ بَعْضًا ﴾ يعني الرؤساء ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أي هي منزلكم الذي تأوون إليه ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ يخلصونكم منها.

﴿ فَفَإِنَّ لَّمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

﴿ فَفَإِنَّ لَّمْ لُوطٌ ﴾ أي صدّقه في جميع مقالاته، وأول من آمن له لوط حين رأى النار لم تُحرقه، وهو ابن أخيه ﴿ وَقَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ ﴾ أي من قومي ومن سواد الكوفة ﴿ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ إلى حيث أمرني ربي، يعني توجهي إلى الله تعالى لا إلى الجهة. ولمّا بالغ عليه السلام في الإرشاد، ولم يهتد قومه، وحصل اليأس، وجبت المهاجرة ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي الغالب الذي لا يفعل فعلاً إلا وفيه حكمة ومصلحة. روي أنه عليه السلام هاجر مع لوط وامرأته سارة ابنة عمه إلى حِزَانَ، ثم منها إلى فلسطين، وهنالك استوطن فيها.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ
وَأَيَّتَنَّهُ أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ولداً من عجوز عاقر، ولذا لم يذكر
إسماعيل ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ ﴾ فكثر منهم الأنبياء ﴿ وَالْكِتَابَ ﴾ أي
جنس الكتاب المتناول للكتب الأربعة ﴿ وَأَيَّتَنَّهُ أَجْرُهُ ﴾ بمقابلة هجرته إلى
الله ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ بإعطاء الولد، واستمرار النبوة فيهم، والشأن عليه إلى آخر
الدهر ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي الكاملين في الصلاح. ولما أتى
إبراهيم عليه السلام بالتوحيد، دفع الله تعالى عنه عذاب الدنيا وهو
الإحراق بالنار، وأعطاه الثواب العاجل جزاء صبره على الابتلاء، وكان
وحيداً فبدل الله وحدته بالكثرة، حتى مُلئت الدنيا من ذريته.

﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿ وَلَوْطًا ﴾ عطف على إبراهيم ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ
الْفَحِشَةَ ﴾ وهي اللواط ﴿ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾
بيان مقررٌ لكمال قبحها، أي ما فعل هذه الفعلة القبيحة أحد من الخلق
قبلكم، لأنها تشتمر منها الطباع، وتنفر منها النفوس الزكية حتى البهائم،
لا تتعاطاها.

﴿ أَيَّتَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ
الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ
كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿أَيِّنْكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ أي تتعرضون للسبالة بالفاحشة حيث روي أنهم كانوا كثيراً ما يفعلون بالغرباء ذلك، ويقطعون السبيل بالقتل وأخذ المال ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ﴾ أي في مجلسكم الجامع لأصحابكم، والنادي مجلس القوم، ولا يقال فيه ذلك إلا والقوم مجتمعون فيه، وإذا تفرقوا زال عنه هذا الاسم ﴿الْمُنْكَرُ﴾ كالجماع، وحلُّ الإزار، والسباب، والفحش في المزاح، وغيرها مما لا خير فيه، من الأفاعيل المنكرة ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي فما كان جوابهم إلا هذه الكلمة، أي لم يصدر عنهم في هذه المرة، إلا أن قالوا على سبيل الاستهزاء: اتتنا يالوط بالعذاب الذي تعدنا به إن كنت صادقاً!!.

﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾

﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي﴾ بإنزال العذاب الموعود ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ بابتداع الفاحشة، ولما يس عليه السلام من صلاحهم، طلب النصرة، ولأنهم كانوا يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه، وصَفَّهم بالمفسدين، إشعاراً بأنهم أحقَاء بأن يُعَجَّلَ لهم العذاب، وما طلب نبيٌّ من الأنبياء هلاك قوم، إلا إذا علم أن موتهم خير من وجودهم، كما قال نوح عليه السلام: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاَجِرًا كَفَّارًا﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ بالبشارة بالولد ﴿قَالُوا﴾ لإبراهيم ﴿إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي قرية سدوم، ﴿إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا﴾

ظَلَمِينَ ﴿ تَعْلِيلٌ لِلْإِهْلَاكِ بِإِصْرَارِهِمْ عَلَى الظلم والفساد، وحين ذكروا
البشرى ما عللوا، وعللوا الإهلاك، لأن ذا الفضل لا يكون فضله بعوض،
والعادل لا يكون عذابه إلا على جرم.

﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا
أَمْرًا تَكُنُّ كَأَنَّ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴾ ﴿٣٢﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ فكيف تهلكونها؟
﴿ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ ﴾ أرادوا أنهم غير غافلين عن مكان لوط
فيها، وأنهم مهتمون بشأنه وشأن أهله، حسبما ينبىء عنه تصدير الوعد
بالقسم، أي والله لننجينه ﴿ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَكُنُّ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴾ أي
الهالكين، الباقين في العذاب، لأنها كانت كافرة.

﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ يَوْمِهِمْ فَهُمْ يَلْمُوكَ بِهِمْ وَذَرَعُوا قَالُوا لَا
تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُنُّ مِنَ
الْغَيْرِينَ ﴾ ﴿٣٣﴾ .

﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا ﴾ الملائكة المذكورون بعد مفارقتهم
لإبراهيم عليه السلام ﴿ سِئَاءَ يَوْمِهِمْ ﴾ أي اعتراه المساء بسببهم، مخافة أن
يتعرض لهم قومه بسوء ﴿ وَذَرَعُوا قَالُوا ﴾ أي ضاق صدره بشأنهم، لأنهم
حسان الوجوه، جاؤوه بصورة أضياف ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي المرسلون حينما
شاهدوا عليه مخايل التضجر من جهتهم ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ من قومك علينا ﴿ وَلَا
تَحْزَنْ ﴾ بإهلاكنا إياهم ﴿ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ ﴾ مما يصيبهم من العذاب ﴿ إِلَّا
أَمْرًا تَكُنُّ مِنَ الْغَيْرِينَ ﴾ أي من الهالكين الباقين في العذاب.

﴿ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ ﴾ ﴿٣٤﴾ .

﴿ إِنَّمَا مُزَلُّونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أي عذاباً مؤلماً من السماء، سُمِّيَ بذلك لأنه يُهلك المعدَّب، من قولهم: ارتجز البعير إذا ارتعش واضطرب ﴿ يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ أي بسبب فسقهم المستمر.

﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٣٥﴾ .

﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا ﴾ أي من القرية ﴿ آيَةً بَيِّنَةً ﴾ هي قصتها العجيبة، وآثار ديارهم الخربة ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي يستعملون عقولهم في الاعتبار.

﴿ وَإِلَىٰ مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ ﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿ وَإِلَىٰ مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أي وارسلنا إلى مدين نبياً كريماً، هو شعيب عليه السلام ﴿ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ وحده ﴿ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ توقعوه وما سيقع فيه من فنون الأهوال ﴿ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ ﴾ أي ولا تسعوا بالإفساد في الأرض، بأنواع البغي والعدوان.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴾ ﴿٣٧﴾ .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ الرجفة: الزلزلة الشديدة وفي سورة هود عليه السلام: ﴿ وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ ﴾ أي صيحة جبريل عليه السلام، فإنها موجبة للرجفة بسبب تموجات الهواء، وما يجاورها من الأرض ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ ﴾ أي بلدهم أو منازلهم ﴿ جِثْمِينَ ﴾ ميتين باركين على الرُّكَب.

﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا ﴾ أي أهلكننا عاداً وثموداً ﴿ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ ﴾ أي قد ظهر لكم إهلاكنا إياهم ﴿ مِنْ مَسْكِينِهِمْ ﴾ بالنظر إليها عند اجتيازكم بها، وكان أهل مكة يمرّون عليها، في أسفارهم إلى الشام، فيبصرونها وهي خراب ﴿ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ ﴾ من فنون الكفر والمعاصي ﴿ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ السوي الموصل إلى الحق ﴿ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ متمكنين من النظر والاستدلال، ولكن لم يفعلوا ولجّوا في طغيانهم يعمهون، حتى هلكوا.

﴿ وَقُرُوبٍ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ ۗ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ ﴿٣٩﴾ .

﴿ وَقُرُوبٍ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ ۗ ﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴿ عن عبادة الله ﴾ ﴿ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ أي مفلتين من عذاب الله، من قولهم: سبق طالبه إذا فاته ولم يدركه.

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿٤٠﴾ .

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي فكل واحد من المذكورين عاقبناه بجنايته ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ تفصيل للأخذ ﴿ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ أي عاصفاً، وهم قوم لوط أهلكنهم الله بحصباء من السماء، فدمّرهم عن آخرهم، وجعل ديارهم عليها سافلها ﴿ وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾ كمدين وثمود ﴿ وَمِنْهُمْ مَن

خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ ﴿ كَقَارُونَ ﴾ وَمِنْهُمْ مَنَ أَغْرَقْنَا ﴿ كَقَوْمِ نُوحٍ وَكَقِرْعُونَ وَجِيشِهِ ﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ ﴿ بِمَا فَعَلَ بِهِمْ ﴾ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿ بالشرك، وتكذيب الرسل، والطغيان، حيث أذلوا أنفسهم في عبادة الأوثان.

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أي فيما اتخذه معتمداً ومتكلاً، في اعتمادهم عليها، ورجائهم نفعها ﴿ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ كمثل العنكبوت بنت لها بيتاً، لا يغني عنها في حرٍّ أو بردٍ، وَنَسَجَتْهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ، يكاد يطير من لفحة هواء، ولهذا كان سريع الزوال ﴿ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ﴾ حيث لا يرى شيء يدانيه، في الوهن، والتفاهة، والحقارة، ولهذا يقال في الأمثال «أوهى من بيت العنكبوت» ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ شيئاً من الأشياء، لجزموا أن دينهم أوهن من ذلك، لأن المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق، والرزق، ودفع الضرِّ، وجرُّ النفع، فإن من لا يكون كذلك، فهو والمعدوم سواء.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي هو تعالى العالم بما يعبدون من دونه، لا يخفى عليه ذلك، وسيجازيهم على كفرهم، سواء منهم من عبد الحجر أو البشر ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه، وفيه تجهيلٌ لهم، حيث عبدوا جماداً لا علم له ولا قدرة، وتركوا عبادة القادر الحكيم.

﴿ وَذَلِكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ ﴿٤٣﴾ .

﴿ وَذَلِكَ الْأَمْثَلُ ﴾ أي هذا المثل وأمثاله ﴿ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ أي نبينها للناس تقريباً لما بُعد من أفهامهم ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا ﴾ على ما هي عليه من الحسن واستتباع الفوائد ﴿ إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ الراسخون في العلم، المتدبرون في الأشياء على ما ينبغي، والتمثيل يؤثر في النفس تأثير الدليل، ودلت الآية على فضل العلم.

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٤٤﴾ .

﴿ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أي محققاً مراعيّاً للحكم والمصالح، والمقصود من خلقهما إفاضة الخير على العباد ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ دالة على ما ذكر من شؤونه سبحانه، وفيه دلائل على عظم قدرته وعبرة للمعتبرين ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ خُصُّوا بالذكر لأنهم المنتفعون بذلك.

﴿ أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ .

﴿ أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ تقرباً إلى الله تعالى بقراءته، فإن القارئ المتأمل، قد ينكشف له بالترار، ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه، وتذكيراً للناس بما فيه من الأحكام، ومحاسن الآداب والأخلاق ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾ أي داوم على إقامتها ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى ﴾ أي من شأنها وخاصيتها، أن تنهى الناس وتمنعهم ﴿ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾

ومعنى نهيها عنهما، لأنها مناجاة الله تعالى، فلا بد أن تكون مع إقبال تام على طاعته، وإعراضٍ عن كل معاصيه، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «الصلاة رادعٌ ومزدجر عن معاصي الله، فمن لم تأمره صلاته بالمعروف، ولم تنهه عن المنكر، لم تزد به صلاحاً من الله تعالى إلا بُعداً» والمصلي يناجي ربه، فيستحيل أن يترك طاعة الله ويطيع الشيطان، والمصلي يلبس لباس التقوى فيتجنب فاذورات الفحشاء، ومن أقام الصلاة، عصمه الله تعالى عن المنكر والفحشاء ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي والصلاة أكبر من سائر الطاعات، فينبغي أن تكون على أبلغ وجوه التعظيم، وإنما عبر عنها به كما في قوله تعالى: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ للإيدان بأن ما فيها من ذكر الله، هو العمدة في كونها مفضّلة على الحسنات، وناهية عن السيئات، وقيل: معناه ولذكّر الله إياكم برحمته، أكبر من ذكركم إياه بطاعته، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله، إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»^(١) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من سائر الطاعات، فيجازيكم أحسن المجازاة.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَاللَّهُنَّ وَاللَّهُمُّ وَجِدُّ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^(١١).

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالخصلة التي هي أحسن، كمقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم، والمشغبة بالنصح، على وجه لا يدل على ضعف، وأهل الكتاب

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٢٧٠٠ في الذكر والدعاء والترمذي في الدعوات رقم ٣٣٧٥.

لما آمنوا بالله، وبيّنزال الكتب، والحشر، فلمقابلة هذا يجادلون بالأحسن، بخلاف المشرك ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بالإفراط في الاعتداء والعناد فإنه يجب حينئذ المدافعة بما يليق بحالهم ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَوَحْدٌ﴾ عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال النبي ﷺ «لا تصدّقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم».. (١) ﴿وَتَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي مطيعون له خاصة، وفيه تعريض لحال الفريقين حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله عز وجل.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَايَنْتَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ (٤٧).

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإنزال الموافق لإنزال سائر الكتب ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي القرآن العظيم ﴿فَالَّذِينَ ءَايَنْتَهُمُ الْكِتَابَ﴾ كعبد الله ابن سلام وأصحابه ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي يصدقون بالقرآن وبمن أنزل عليه ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ﴾ أي من العرب أو أهل مكة ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ بالقرآن ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ عبّر عن الكتاب بالآيات، لظهورها وقيام الحجة عليها، بأنها من عند الله ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ المتوغلون بالكفر والتكذيب.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْأَلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُرُ بِمِمينِكَ إِذَا لَأْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (٤٨).

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ١٢٩/٨ تفسير سورة البقرة.

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ﴾ أي من قبل إنزالنا إليك الكتاب، ما كنت تقدر أن تتلو شيئاً من كتاب ﴿ وَلَا تَخْطُطُمْ ﴾ أي ولا تقدر أن تخطه ﴿ بِمَعِينِكَ ﴾ حسبما هو المعتاد، وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفي، ﴿ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبِطُلُونَ ﴾ أي لو كنت ممن يقدر على التلاوة والخط، لارتابوا وقالوا: لعله التقطه من كتب الأوائل، وحيث لم تكن كذلك، لم يبق في شأنك منشأ ريب أصلاً، لأن ظهور كتاب جامع لأنواع العلوم الشريفة، من أمي لا يعرف القراءة والكتابة، خارقٌ للعادة.

﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ .

﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي القرآن الكريم ﴿ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ واضحات، ثابتة راسخة ﴿ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ من غير أن يلتقط من كتاب، فمن خصائص القرآن، كون آياته بينات الإعجاز، وكونه محفوظاً في الصدور بخلاف سائر الكتب، فإنها لم تكن معجزات ولا كانت تقرأ إلا من المصاحف ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ المتجاوزون للحد في الشر والفساد، والمكابرة والعناد، بعد وضوح إعجازها.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى عليه السلام، ونحو ذلك ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ينزلها حسبما يشاء، من غير دخل لأحد في ذلك قطعاً ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ ليس من شأني إلا الإنذار، وإبانتته بما أوتيته من الآيات، وليس لي أن أقول أنزل علي آية كذا.

﴿ أَوْلَمَ يَكْفِيهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِيَّاكَ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٥١﴾ .

﴿ أَوْلَمَ يَكْفِيهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ كلام مستأنف وارد من جهته تعالى، رداً على اقتراحهم، أي أولم يكفهم آية مغنية عن سائر الآيات، الكتاب الناطق بالحق والصواب ﴿ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾؟ في كل زمان ومكان، فلا يزال معهم آية ثابتة، لا تزول ولا تضمحل ﴿ إِيَّاكَ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الكتاب العظيم، الباقي مرّ الدهور ﴿ لَرَحْمَةً ﴾ أي نعمة عظيمة ﴿ وَذِكْرَىٰ ﴾ أي تذكرة وموعظة ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أي لمن همه الإيمان دون التعتت كأولئك المقترحين.

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴾ ﴿٥٢﴾ .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴾ بما صدر عني وعنكم بتبليغ ما أرسلت به إليكم، ومقابلتكم بالتكذيب، والتعتت، وهذا إنذار وتهديد ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي من الأمور التي من جملتها شأني وشأنكم ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ ﴾ وهم الذين آمنوا بالطواغيت والأوثان والرهبان ﴿ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ ﴾ مع تعاضد موجبات الإيمان به ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴾ أي المغبونون في صفتهم، حيث اشتروا الكفر بالإيمان، والآية من قبيل المجادلة والتي هي أحسن، حيث لم يصرح بنسبة الإيمان بالباطل، والكفر والخسران إليهم، بل بالإبهام.

﴿ وَاسْتَعْجِلُونَا بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٥٣﴾ .

﴿وَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ على طريق الاستهزاء بقولهم متى هذا الوعد؟ ونحو ذلك ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قد ضربه الله تعالى لعذابهم، وبيّنه في اللوح المحفوظ ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ المعين لهم حسبما استعجلوا به، وقيل المراد بالأجل يوم القيامة ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً﴾ أي وبالله ليأتيَنَّهُم العذاب الذي عين لهم، عند حلول الأجل (بغته) أي فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي يستعجلون بالعذاب، والحال أن محل العذاب سيحيط بهم، تنزيلاً لحال السبب منزلة المسبب، لإحاطة الكفر والمعاصي بهم.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ﴾ الذي أشير إليه بإحاطة جهنم، يكون من الأحوال ما لا يفى به المقال ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي من جميع جهاتهم ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي تعملونه في الدنيا على الاستمرار، التي من جملتها الاستعجال مع الاستهزاء، وجعل ذلك عين ما كانوا يعملونه للمبالغة، بطريق إطلاق اسم المسبب على السبب.

﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ﴾.

﴿يَعْبَادِي﴾ خطاب تشريف لبعض المؤمنين، الذين لا يتمكنون من إقامة أمور الدين كما ينبغي، لممانعة من جهة الكفرة، وإرشاد لهم إلى الطريق الأسلم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ﴾ أي إذا لم يتسهل

لكم العبادة في بلد، ولم يتيسر لكم إظهار دينكم فيها، فهاجروا حيث يتسنى لكم ذلك.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾ .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ جملة مستأنفة جيء بها حثاً على المسارعة في الامتثال بالأوامر، أي كلُّ نفس من النفوس، واجدةً مرارة الموت ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أي فراجعةً إلى حكمنا بحسب أعمالها، فمن كانت عاقبته هذه، فلا بدَّ له من التزود والاستعداد لها.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ الْعَمِلِينَ ﴾ ﴿٥٨﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ ﴾ أي لننزلنهم ﴿ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا ﴾ أي علالي قصور الجنة، ونسكنهم منازل رفيعة في الجنة ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ الْعَمِلِينَ ﴾ أي نعمت تلك المساكن العالية أجراً للعاملين.

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ .

﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أي صبروا على أذية المشركين، وشدائد المهاجرة، وغير ذلك ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فيما يأتون ويذرون، ولا يتوكلون إلا على الله تعالى.

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ۗ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿٦٠﴾ .

﴿ وَكَأَيِّنْ ﴾ وكم ﴿ مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رَزْقَهَا ﴾ لا تطيق حملها لضعفها لا تدخره وإنما تصبح ولا معيشة عندها ﴿ اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي إنها لا تطيق الكسب لضعفها ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أي ويرزقكم مع قوتكم واجتهادكم، لأن رزق الكل بأسباب، هو المسبب لها وحده، فلا تخافوا الفقر بالمهاجرة، ولولا أن الله يرزقكم لكنتم أعجز من الدواب، التي لا تحمل رزقها^(١)، قيل: لا يذخر من الحيوانات قوتاً: إلا ابن آدم، والفأرة، والنمل ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴾ المبالغ في السمع، يسمع قولكم ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ المبالغ في العلم، فيعلم ضمائركم.

رُوي أن النبي ﷺ لما أمر المؤمنين بالهجرة من مكة إلى المدينة، قالوا: كيف نخرج وليس لنا بها دار، ولا مال؟ فأنزل الله هذه الآية، وفي الحديث الشريف عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حقَّ توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً»^(٢).

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أي أهل مكة، إذ لا سبيل لهم إلى إنكاره، ولا إلى التردُّد فيه، لما تقرَّر في

(١) القصد من الآية: التقوية لقلوب المؤمنين، إذا خافوا الفقر والجوع، عند الهجرة من أوطانهم، فكما يرزق الله الحيوانات الضعيفة، مع عجزها وضعفها، كذلك يرزق المؤمنين إذا هاجروا من أوطانهم، نصرةً لدين الله، فلا ينبغي لأحد أن يخاف الفقر، إن هاجر في سبيل الله، فالله هو الخالق وهو الرازق.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٢٣٤٥ في الزهد، ومعنى خماصاً أي جيعاً، وبتاناً أي شباعاً.

العقول من أن كل صنعة لا بد لها من صانع، وكل مخلوق لا بد له من خالق، وهو الله واجب الوجود ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ إنكار واستبعاد لتركهم العمل بموجبه، أي فكيف يصرفون عن الإقرار بتفرده تعالى في الألوهية، مع إقرارهم بتفرده تعالى بالخلق والتسخير؟.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ أن يبسط له ﴿مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ أي يقدر ويضيّق لمن يشاء أن يقدر له منهم، كائناً من كان ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي يعلم من يليق ببسط الرزق فيبسطه له، أو يضيّق عليه، حسب ما يوافق الحكمة والمصلحة، فيفعل كلاً منهما في وقته.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُم مِّن نَّزَلٍ مِّن السَّمَاءِ مَاءً فَآخَبُوا بِهَا الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُم مِّن نَّزَلٍ مِّن السَّمَاءِ مَاءً فَآخَبُوا بِهَا الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ لأنهم يعترفون بأن الموجد للممكنات بأسرها، هو الله تعالى، ثم إنهم يشركون به تعالى؟ ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على أن جعل الحق بحيث لا يجترىء المبطلون على جحوده، وأنه تعالى عصمك من أمثال هذه الضلالات، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ شيئاً من الأشياء، حيث يقرّون بأن الله هو الخالق الرازق، ويعبدون غيره.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانُ ﴾ أي
 لهي دار الحياة الحقيقية، لامتتاع جريان الموت والفناء عليها ﴿ لَوَكَّانُوا
 يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقة الدارين، لما آثروا دار الفناء على دار البقاء.

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ
 إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ ﴾ أي فإذا ركبوا في البحر، ولقوا شدائده
 ﴿ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي لا يدعون غير الله تعالى، لعلمهم بأنه لا
 يكشف الشدائد عنهم إلا هو سبحانه ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي
 آثروا المعاودة إلى الشرك، قيل: كان أهل الجاهلية، إذا ركبوا البحر،
 حملوا الأصنام، فإذا اشتدت الرياح ألقوها في البحر، وقالوا: يا رب، يا
 رب، يا مغيث أغثنا!! .

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ ﴾ أي يفاجئون الأشراك ليكونوا كافرين بما
 أعطيناهم من نعمة الإنجاء ﴿ وَلِيَتَمَنَّوْا ﴾ بسبب الشرك ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾
 سوء تدبيرهم، عند تدميرهم، وهو وعيد وتهديد.

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَا لَبِطِلٍ
 يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ .

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا ﴾ أي ألم ينظروا ويشاهدوا ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا ﴾ أي بلدهم مكة
 المكرمة ﴿ حَرَمًا آمِنًا ﴾ مصنوناً من النهب والتعدي، سالماً أهله من كل
 سوء ﴿ وَيُخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ يعني العرب يسبي بعضهم بعضاً، وكانوا

حوله في تغاور وتناهب ﴿أَفِيَا بَطِيلٍ يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي أبعده ظهور الحق ووضوحه، يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن؟ ﴿وَنِعْمَ اللَّهُ يَكْفُرُونَ﴾ وهي المستوجبة للشكر، وتقديم الصلة في الموضوعين، لإظهار كمال شناعة ما فعلوا.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن زعم أن له شريكاً؟ أي هو أظلم من كل ظالم ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالرسول أو بالقرآن ﴿لَمَّا جَاءَهُ ۗ﴾ وفي «لَمَّا» تسفيه لهم، بأنهم لم يتأملوا فيه، بل سارعوا إلى التكذيب بدون تريث ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾؟ أي ألا يستوجبون الإقامة في جهنم، وقد فعلوا ما فعلوا؟! فمستقرهم ومسكنهم نار جهنم.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ أي في شأننا ولوجهنا، خالصاً لمرضاة الله سبحانه ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ سبل السير إلينا، والوصول إلى جنابنا، ونثبتهم على الهداية والإيمان ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ معية النصر والمعونة في الدنيا، والمغفرة والثواب في العقبى، والله أعلم بأسرار كتابه، وصلى الله تعالى على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. والحمد لله رب العالمين

«تم بعونه تعالى تفسير سورة العنكبوت»

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

مكية وهي ستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَ ﴿١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ .

﴿الْمَ ﴿١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي آدْنَى الْأَرْضِ﴾ أي أدنى أرض العرب منهم، وهي أطراف الشام، أو أدنى أرض الروم إلى فارس ﴿وَهُمْ ﴿٣﴾﴾ أي الروم ﴿مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ ﴿٤﴾﴾ أي من بعد مغلوبيتهم ﴿سَيَغْلِبُونَ ﴿٥﴾﴾ فارس ويقهرونها.

﴿فِي يَضِعُ سِنِينَ ﴿٦﴾ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾ .

﴿فِي يَضِعُ سِنِينَ ﴿٦﴾﴾ أي في فترة قصيرة لا تتجاوز بضعة أعوام، والبضْعُ: ما بين الثلاث إلى التسع، وسبب نزول هذه الآية، على ما ذكره المفسرون، أنه كان بين فارس والروم قتال، وكان المشركون يودُّون أن تغلب فارسُ الرومَ، لأن فارس كانوا مجوساً، والمسلمون يودون غلبة

الروم، لكونهم أهل كتاب، فغلبت فارسُ الرومَ، فبلغ ذلك الخبرُ المسلمين بمكة، فشقَّ عليهم، وفرح به كفار مكة وقالوا: قد ظهر إخواننا من أهل فارس، على إخوانكم من أهل الروم، فلنغلبنَّ عليكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية معجزة للرسول ﷺ حيث أخبر عن أمرٍ غيبي، وشاهدة بكون القرآن من الله تعالى ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ﴾ أي في أول الوقتين وفي آخرهما، حين غلبوا، وحين يَغلبون، فالمعنى: إن كلاً من كونهم غالبين أو مغلوبين، ليس إلاً بأمر الله وقضائه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ يغلب الرومُ، ويحلُّ ما وعد الله به ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿يَنْصُرِ اللَّهُ﴾ من غلبتهم، وقيل: نصر الله: إظهارُ صدق المؤمنين فيما أخبروا به المشركين، من غلبة الروم على فارس ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي من يشاء أن ينصره من عباده ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ المبالغ في العزة والغلبة، ينتقم من أعدائه، ﴿الرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة لأوليائه وأحبابه.

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مصدر مؤكد لنفسه، كأنه قيل: وَعَدَ اللَّهُ وعداً بظهور الروم عليهم ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي وعد كان، مما يتعلق بالدنيا والآخرة، لاستحالة الكذب عليه تعالى ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من شؤونه تعالى وحكمته.

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ زخارفها وأحوالها الموافقة لشهواتهم، كأمر معاشهم، كيف يكسبون؟ ومتى يزرعون؟ ومتى يحصدون؟ وتكبير ﴿ظَاهِرًا﴾ للتحقير، أي يعلمون ظاهراً حقيراً من الدنيا ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ أي وهم عميٌّ عن أمر الآخرة، التي هي الغاية القصوى، ومن الناس من ينقر الدرهم بطرف ظفره، فيعرف جوده وزيفه، وهو لا يعرف كيف يصلي، أي يعلمون ظاهرها ولا يعلمون باطنها، وهي مضارها وفناؤها، وإيرادها جملة اسمية، للدلالة على استمرار غفلتهم، وتشبيهاً لهم بالحيوانات، المقصور إدراكها بظاهرها.

﴿ أَوْلَمْ يَنْفَكُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ ﴿٨﴾ .

﴿ أَوْلَمْ يَنْفَكُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ فإنها أقرب إليهم من غيرها، ومراة يتجلى فيها للمستبصر، ما يتجلى له في الممكنات بأسرها، ليتحقق له قدرة مبدعها ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ الذي يحق أن يثبت، أي ما خلقهما إلا بالحكمة البالغة، والغرض الصحيح، الذي يدلُّ على وجود صانعها ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي بأجل معين، قدره الله تعالى لبقائها، وهو وقت قيام الساعة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ توضيحٌ مقرر لما قبله ببيان السبب أي وأكثر الناس غير مقتصرين على الغفلة، وعدم التفكير، بل هم منكرون لقاء حسابه تعالى، يحسبون أن الدنيا أبدية، وأن الآخرة لا تكون.

﴿ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿٩﴾ .

﴿ أَوْلَمَ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا ﴾ توبيخ لهم على عدم اعتبارهم، بمشاهدة أحوال أمثالهم، الدالة على عاقبتهم، فقد سافروا في أقطار الأرض وشاهدوا ولم يعتبروا ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ كعاد وثمرود ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ وأقدر منهم على التمتع بالحياة الدنيا ﴿ وَأَنَارُوا الْأَرْضَ ﴾ أي قلبوها للزراعة والحرث. ﴿ وَعَمَرُوهَا ﴾ بفنون العمارات ﴿ أَكْثَرِمًا عَمَرُوهَا ﴾ أي أكثر من عمارة هؤلاء لها، وفيه تهكم بهم، حيث كانوا مغترين بالدنيا، مع ضعف حالهم، وهم أهل واد غير ذي زرع ﴿ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي جاءتهم بالآيات الواضحات، والمعجزات الساطعات ﴿ فَمَا كَانُوا يَنظُرُونَ ﴾ أي فما كان الله ليهلكهم من غير جرم ﴿ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي ولكنهم كذبوا رسلهم واقترفوا ما يوجب هلاكهم، فدمرهم الله ولم تنفعهم قواهم.

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا السُّوءَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا ﴾ أي عملوا السيئات، وارتكبوا الجرائم في هذه الحياة الدنيا، ووضع الاسم الموصول ﴿ الَّذِينَ أَسْتَوُوا ﴾ موضع ضميرهم، للتسجيل عليهم بالإساءة وللإشعار بعلّة الحكم ﴿ السُّوءَىٰ ﴾ أي العقوبة التي هي أسوأ العقوبات ﴿ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ المنزلة على رسوله، ومعجزاته الظاهرة ﴿ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أي كانوا يسخرون منها ولا يؤمنون.

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بعد الموت بالبعث ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ إلى موقف الحساب والجزاء، والالتفات للمبالغة في الترهيب.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ التي هي وقت الإعادة للحساب ﴿ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أي يسكتون متحيرين ويأسون، يقال: ناظرته فأبلس، أي أيس من أن يحتج، وسكت تحيراً.

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ ﴾ يجيرونهم من عذاب الله، كما كانوا يزعمونه في الدنيا ﴿ وَكَانُوا ﴾ أي سيكونون ﴿ بِشُرَكَائِهِمْ ﴾ أي بالهتهم ﴿ كَافِرِينَ ﴾ أي وكفروا بالهتهم حين يشؤوا منهم.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَرُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَرُونَ ﴾ أعيد لتحويله ﴿ يُنْفَرُونَ ﴾ أي جميع الخلق، لا المجرمون خاصة، وذلك بعد تمام الحساب.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ ﴾ المراد بها الجنة، والروضة كل أرض ذات نبات، وماء، ورونق ونضارة ﴿ يُحْبَرُونَ ﴾ أي يسرون سروراً تتهلل له وجوههم.

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ أي وأما الذين جحدوا
بآياتنا، وكذبوا بالبعث والحساب ﴿فَأُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما فُصِّل ﴿فِي﴾
الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ﴾ على الدوام، لا يغيبون عنه أبداً.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ أمر سبحانه عباده بتنزيه الله
تعالى، عن كل ما لا يليق بشأنه، أي فسبحوا الله في هذه الأوقات.
﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ واحمدوه في
المساء والصبح، وفي العشي والظهيرة، فهو سبحانه المحمود بذاته
وصفاته، في السماء والأرض، أي يحمده أهل السماء والأرض، وفي
الحديث الشريف: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان،
حبيبتان للرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»^(١) وقيل: المراد
به الصلاة أي صلوا لربكم في الصباح والمساء، وفي الظهر والليل، قيل
لابن عباس رضي الله عنهما: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال:
نعم وتلا هذه الآية.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي الحيوان من النطفة،
والنطفة من الحيوان. والشجرة من النواة، والنواة من الشجرة ﴿وَيُحْيِي﴾

(١) أخرجه البخاري في الدعوات ١٧٥/١١ ومسلم في الذكر رقم ٢٦٩٤ وقد ختم الإمام
البخاري صحيحه بهذا الحديث الشريف.

الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿ أَيُّ بَعْدَ يَبْسُهَا ﴾ وَكَذَلِكَ ﴿ أَيُّ مِثْلَ ذَلِكَ الْإِخْرَاجِ ﴾ تَخْرُجُونَ ﴿ أَيُّ مِنْ قُبُورِكُمْ، كَمَا بَدَأَكُمْ يَعِيدَكُمْ.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ أي البراهين الدالة على أنكم تبعثون، دلالة أوضح مما سبق، فإن دلالة بدء الخلق على الإعادة، أظهر من دلالة إخراج الحي من الميت، ومن إحياء الأرض، ولهذا قال ﴿ أَنْ خَلَقَكُمْ ﴾ أي في ضمن خلق آدم عليه السلام ﴿ مِنْ تُرَابٍ ﴾ أي من تراب لم يشم رائحة الحياة قط، ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه، في ذاتكم وصفاتكم ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ ﴾ أي فجئتم بعد ذلك، وقت كونكم بشراً ﴿ تَنْتَشِرُونَ ﴾ في الأرض، عقلاء ناطقون، آدميون من لحم ودم.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على ما ذكر من البعث والجزاء ﴿ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ ﴾ أي لأجلكم ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ أي من جنسكم ﴿ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ أي لتألفوا بها، وتميلوا إليها، وتطمثوا بها، فإن المجانسة من دوام المؤانسة، كما أن المخالفة من أسباب التنافر، والإنسان يجد بين الزوجين من التراحم، ما لا يجده بين ذوي الأرحام، وليس ذلك بمجرد الشهوة، فإنها قد تنتفي، وتبقى الرحمة لأنها من الله جلّ وعلا ﴿ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ ﴾ أي بين الأزواج ﴿ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ أي تواداً وتراحماً من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة، ولا رابطة مصححة للتعاطف ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي فيما ذكر من خلقهم، وإلقاء المحبة بينهم ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عظيمة ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في تضاعيف تلك الأفاعيل، المبنية على الحكم البالغة.

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنِّكُمْ وَالْوَنُكُومِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ﴾ الدالة على وحدانيته وكمال قدرته ﴿ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ على عظمتها وكثافتها ﴿ وَأَخْلَفَ السِّنِّكُمْ ﴾ أي لغاتكم، بأن علّم كل صنف لغته، وألهمه وضعها، كما ميّز بين نطقكم، فإنك لا تكاد تسمع منطقيين متساويين من كل وجه ﴿ وَالْوَنُكُومِ ﴾ كيباض الجلد وسواده، وتخطيطات الأعضاء وهيأتها، بحيث يقع بها التمايز بين الأشخاص، حتى إن التوأمن - مع توافق موادهما وأسبابهما في التخليق - يختلفان في شيء من ذلك، وإن كانا في غاية التشابه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ فيما ذكر من خلق السموات، واختلاف الألسن، والألوان ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ عظيمة في أنفسها، كثيرة في عددها ﴿ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أي للمتصفيين بالعلم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أي في الزمانين: في الليل، ووقت الظهيرة بالنهار، لاستراحة القوى النفسانية، والقوى الطبيعية ﴿ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ ﴾ أي وابتغائكم بالنهار من رزق الله^(١)، فالليل للراحة والسكون،

(١) ينبغي للعبد أن لا يرى الرزق من كسبه ومهارته، بل يراه كله من فضل ربه، ولهذا قرن تعالى الابتغاء في كثير من المواضع بالفضل، منها قوله تعالى: ﴿ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ وقوله سبحانه: ﴿ وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ فالرزق رزقُ الله، والخلق خلقُ الله وصدق الله العظيم ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ .

والنهار لطلب الكسب والرزق ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي شأنهم أن يسمعوا الكلام، سماع تفهم واستبصار، حيث يستدلون بذلك على شؤونه تعالى.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٤).

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من الصواعق ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث من أجل الزرع ﴿وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي يبسها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قدرة الله تعالى فإنها من الظهور بحيث يكفي في إدراكها، مجرد العقل، عند استعماله في استنباط أسبابها.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُم دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (٢٥).

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أي بإقامته، وتدبيره، وحكمته قيامهما بأمره تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُم﴾ للبعث ﴿دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ من قبوركم، وهو أن يقول: قوموا للحساب والجزاء، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين، إلا قامت تنظر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخْ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ والمراد تشبيهه سرعة حصول ذلك، على تعلق إرادته سبحانه بلا توقف.

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُونَ﴾ (٢٦).

﴿ وَكُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَلْبُونَ ﴾ أي متقادون خاشعون خاضعون لجلال الله، مقرون له بالعبودية، مطيعون له سبحانه في الحياة والبقاء، والموت والبعث^(١)، وإن عصوا في العبادة.

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ بعد هلاكهم للبعث ﴿ وَهُوَ ﴾ أي البعث ﴿ أَهْوَنُ ﴾ أي أيسر ﴿ عَلَيْهِ ﴾ أي عندكم، لأن الإعادة عندكم أسهل من الإنشاء، فلم أنكرتم الإعادة؟ ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ ﴾ أي الوصف الأعلى العجيب الشأن، كالقدرة التامة، والحكمة العامة ﴿ الْأَعْلَى ﴾ الذي ليس لغيره ما يساويه أو يدانيه فيه ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي على السنة الخلاق ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ القادر الذي لا يعجز عن شيء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي يجري الأفعال على مقتضى حكمته.

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ متزعاً من أحوالها التي هي أقرب الأمور

(١) ليس على الله عز وجل شيء صعب، وشيء هين، فالكل على الله سهل يسير، ولكنه سبحانه خاطب البشر بما يعقلون ويفهمون، فإذا كانت الإعادة أسهل من الابتداء، في حكمهم وتقديرهم، فلیدرکوا إذا أن من قدر على الخلق أولاً قادر على الإعادة ثانياً، فالبعث أهون عليه حسب منطق البشر، والغرض من الآية إلزام الكفار بالحجة حيث يقرون أن الله هو الخالق، ثم ينكرون قدرته على إحياء الموتى.

إليكم، مثل ضربه الله عزَّ وجلَّ، لمن جعل له شريكاً من خلقه، ثم بيَّن المثل فقال تعالى ﴿ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ أي من ممالئكم يا معاشر الأحرار ﴿ مِّنْ شُرَكَاءَ ﴾ من مزيدة لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي ومعناه، هل ترضون لأنفسكم وعبيدكم أمثالكم بشر أن يشاركوكم ﴿ فِي مَّا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ من الأموال وغيرها ﴿ فَانْتَرْتُمْ ﴾ والعبيد ﴿ فِيهِ ﴾ في ذلك الرزق ﴿ سَوَاءٌ ﴾ من غير تفضيل بين حر، وعبد ﴿ تَخَافُونَهُمْ ﴾ أي خائفاً بعضكم بعضاً مشاركته في المال، تخافون عبيدكم فيها ﴿ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ يعني كما يخاف بعض الأحرار بعضاً، فيما هو مشترك بينهم، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم، فكيف ترضون لربِّ الأرباب أن تجعلوا بعض عبده له شركاء؟ ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل هذا التفصيل ﴿ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ ﴾ نبينها، لأن التمثيل يكشف عن المعاني ويوضحها ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال. ولَمَّا لم ينزجروا أضرب عنهم فقال:

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَالَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴾ ﴿٢٩﴾ .

﴿ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ بالإشراك ﴿ أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي جاهلين لا يكفهم شيء عن ضلالهم ﴿ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ﴾ فمن يقدر على هداية من أضله الله تعالى ﴿ وَمَالَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴾ يخلصونهم من الضلالة، وينجونهم من عذاب الله .

﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّيْلَ لِحَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٠﴾ .

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي فقوم وجهك له، غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا، وهو تمثيل لإقباله على الدين، والاهتمام به أي أخلص دينك لله ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ﴾ أي الزموا فطرة الله ﴿الَّتِي فِطَّرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي خلقهم عليها، فالمعنى: إنه خلقهم قابلين للتوحيد والإسلام، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر، فمن غوى منهم فبسبب شياطين الجن والإنس، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود إلا يُولد على الفطرة، ثم قال اقرؤوا: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾»^(١) ﴿لَا يَبْدِلُ لِرِخْلَيْهِ﴾ أي لا يقدر أحد أن يغيره، قال الزجاج: معناه لا تبديل لدين الله، ويدل عليه ما بعده ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أي المستقيم الذي لا عوج فيه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي جهلة لا يتفكرون فينحرفون عن دين الله وهدايته.

﴿مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢)

﴿مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ﴾ أي راجعين إليه تعالى بالتوبة، وإخلاص العمل، وهو حال من الضمير في: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ لأن الأمر له ﷺ أمرٌ لأُمَّته، فكانه قال: فأقيموا وجوهكم منبئين إليه، ودليله قوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ممن يشرك به غيره في العبادة.

(١) هذا طرف من حديث أخرجه الشيخان «البخاري ومسلم» وتمامه: ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسُن فيها من جدعاء؟ ثم قال ﷺ: وقرؤوا إن شئتم ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ وانظر جامع الأصول ١/٢٦٨.

﴿ مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَابًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (٣٢)

﴿ مِنْ الَّذِينَ ﴾ بدل من المشركين بإعادة الجار ﴿ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ﴾ جعلوه أدياناً مختلفة، لاختلاف أهوائهم ﴿ وَكَانُوا شِعَابًا ﴾ أي صاروا فرقا، كل واحد تشايع إمامها، الذي أضلها، وهم اليهود، والنصارى، والمجوس، وعبدة الأوثان، ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ أي مسرورون، راضون بما عندهم، يحسبون باطلهم حقاً، وكل فرقة تزعم أنها على شيء، ونعوذ بالله من تفرق الأهواء.

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٣٣)

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ أي راجعين إليه سبحانه بالتضرع والدعاء ﴿ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ أي خلاصاً من تلك الشدة ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ ﴾ الذي كانوا دعوه منيبين إليه ﴿ يُشْرِكُونَ ﴾ أي فاجؤوا بالإشراك؛ وتخصيصه ببعضهم، لما أن بعضهم ليسوا كذلك كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ (١) الآية.

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣٤)

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَانَيْنَهُمْ ﴾ اللام في اللعاقبة، أي ليكفروا بنعم الله التي أكرمهم بها ﴿ فَتَمْتَعُوا ﴾ الالتفات فيه للمبالغة ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة تمتعكم بنعيمها الفاني.

(١) سورة لقمان، آية: ٣١.

﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٣٥﴾ .

﴿ أَمْ أَنْزَلْنَا ﴾ الالتفات للإيدان بالإعراض عنهم ﴿ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ﴾ حجة واضحة قاهرة على شركهم ﴿ فَهَوْ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ أي بإشراكهم به تعالى، فالمعنى: أهم يتبعون الأهواء بغير علم، أم لهم دليل على ما يقولون؟ .

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يِمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ﴾ أي نعمة من صحة، وسعة، ونحوهما فرحوا بطراً وأشراً، لا حمداً وشكراً ﴿ وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ أي جذبٌ أو خوف ﴿ يِمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بشؤم معاصيهم ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ فاجؤوا بالفنوط من رحمة الله، وهو خلاف وصف المؤمن لأن المؤمن من يشكر ويرجو، ويعبد الله في الشدة والرخاء، مخلصاً لله تعالى .

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٣٧﴾ .

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أي يوسع الرزق على من يشاء، ويضيِّقه على من يشاء، حسب الحكمة والمصلحة فما لهم لم يشكروا، ولم يكونوا في السراء والضراء كالمؤمنين؟ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ يستدلون بها على كمال القدرة والحكمة ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يؤمنون بحكمة الخالق الرازق .

﴿ فَآتَاكَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ تخصيص الأقسام الثلاثة،
 لبيان من يجب الإحسان إليهم، والمقصود ههنا الشفقة بهم، والخطاب
 للرسول ﷺ أو لمن يصلح له ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ ذاته تعالى،
 ويقصدون بمعرفتهم إياه خالصاً لوجهه ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ حيث
 حصل لهم النعيم المقيم.

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبْوَةٍ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيوُا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم
 مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ .

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا لِّرَبْوَةٍ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ﴾ أي ليزيد مالكم ويكثر عن
 طريق الربا ﴿ فَلَا يَرِيوُا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي لا يبارك الله فيه ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ
 تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ أي ذاته خالصاً لوجهه ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ أي هم
 الذين لهم الضعف من الأجر والثواب، ونظيرُ المضعف، المقوي،
 والموسر، لذي القوة واليسار، كأنه قال: هم أهل الإضعاف الذين
 يستحقون مضاعفة الأجر.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن
 شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُمْ مِّن شَيْءٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن
 يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُمْ مِّن شَيْءٍ ﴾ أثبت له تعالى لوازم الألوهية وخواصها، ونفاها
 عما اتخذوه من الشركاء، أي الله سبحانه هو وحده الخالق الرازق، خلقكم
 من العدم، ثم يبعثكم بعد الموت، فهل من آلهتكم المزعومة من يفعل
 شيئاً من ذلك؟ ﴿ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنزهه وتقدس عن أن يكون
 له مثل أو نظير، في الخلق والإبداع.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ
بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١).

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ كالجذب، وكثرة الحرق، والغرق،
ومحق البركات، وكثرة المضار، وقلة المطر ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي
بشؤم معاصيهم كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ
أَيْدِيكُمْ﴾ (١) ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي بعض جزائه، وتماثه في الآخرة
﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عما كانوا عليه من الشرك والمعاصي، ثم أكد تسبب
المعاصي لغضب الله بقوله سبحانه:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ (٤٢).

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ ليشاهدوا آثارهم ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ أي ما أصابهم لفسو الشرك فيما بينهم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ
يَصَّدَّعُونَ﴾ (٤٣).

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ أي الدين المستقيم الذي لا عوج فيه،
وهو الدين الحق دين الإسلام، خاطب النبي ﷺ، ليعلم المؤمن فضيلة ما
هو مكلف به، فإنه أمر به أشرف الأنبياء ﷺ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ﴾ أي
لا يقدر أحد على رده ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ أي لتعلق إرادته سبحانه بمجيئه ﴿يَوْمَئِذٍ
يَصَّدَّعُونَ﴾ أصله يتصدعون أي يتفرقون فريق في الجنة، وفريق في السعير.

(١) سورة الشورى، آية: ٣٠.

﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾ .

﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ أي وبال كفره، وهو النار المؤبدة ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا ﴾ ولم يقل من آمن لأن العمل الصالح يكمل الإيمان ﴿ فَلَا نَفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ أي يسوون ويهيئون لهم منزلاً في الجنة، مأخوذ من تمهيد الفراش، وهو فرشته وتهيئته بما يحقق الراحة.

﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿٤٥﴾ .

﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي ليجزي المؤمنين المتقين أفضل الجزاء، من فضله وكرمه، بسبب صالح أعمالهم ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ أي لا يحب الجاحدين لفضل الله، بل يكرههم ويمقتهم.

﴿ وَمَنْ ءَايَنَاهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ
بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٤٦﴾ .

﴿ وَمَنْ ءَايَنَاهُ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ ﴾ بالمطر ﴿ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أي وليكرمكم بإنزال الغيث الذي يحيي البلاد والعباد، وفي الرياح فوائد: منها إصلاح الهواء، ومنها إثارة السحاب، ومنها جريان الفلك بها، وزكاء الأرض، وغير ذلك ﴿ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ بتجارة البحر ﴿ وَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أي ولتشكروا نعم الله الجليلة عليكم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ
أَجْرَهُمْ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾ .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كما أرسلناك إلى قومك، ﴿فَجَاءَهُمْ وَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فجاء كل رسول قومه بالمعجزات الواضحات، والحجج الساطعات فآمن بهم قوم، وكفر بهم قوم ﴿فَأَنقَمْنَا﴾ أي فكذبوهم فانتقمنا من الكفرة المجرمين ﴿مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أي كفروا، بالإهلاك في الدنيا، وفي قوله تعالى ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ مزيد تشریف للمؤمنين، والإشعار بأن الانتقام من الكفرة لأجلهم، روي عن أبي الدرداء أنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يردُّ عن عرض أخيه، إلاَّ كان حقًّا على الله، أن يردَّ عنه نار جهنم، يوم القيامة» ثم تلا هذه الآية (١).

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَىٰ الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي هو جلَّ وعلا بقدرته يبعث الرياح فتحرك السحاب، وتسوقه أمامها ﴿فَيَبْسُطُهُ﴾ تارة ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ في جوِّها ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ خفيفاً أو كثيفاً، مطبقاً أو غير مطبق ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا﴾ تارة أخرى أي قطعاً ﴿فَرَىٰ الْوَدْقَ﴾ أي المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي أصاب المطر بلادهم وأراضيهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ يُسْرُونَ ويفرحون بنزول الغيث، وفوجئوا بالاستبشار بمجيء الخصب.

(١) الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الأدب رقم ٤٨٨٤ بلفظ «ما من مسلم يخذل امرأ مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمة، ويُنتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته.. وما من مسلم ينصر مسلماً في موضع يُنتقص فيه من عرضه، ويُنتهك فيه من حرمة، إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته».

﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴾ ﴿٤٩﴾ .

﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ ﴾ تكرير «قبل» للتأكيد والإيذان بطول عهدهم بالمطر، واستحكام يأسهم منه ﴿ لَمُبْلِسِينَ ﴾ أي آيسين من رحمة الله، فإنهم إذا حبس عنهم المطر فنتوا، وإذا نزل المطر بطروا، وتكبروا على ربهم .

﴿ فَأَنْظِرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ﴿٥٠﴾ .

﴿ فَأَنْظِرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾ أي فانظر أيها العاقل نظر تبصّر وتدبر، إلى آثار نعمة الله، المترتبة على تنزيل المطر، من النبات، والأشجار، وأنواع الثمار ﴿ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ ﴾ أي كيف يحييها الله تعالى ﴿ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ بعد يبسها ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ أي الذي قدر على إحياء الأرض ﴿ لَمُحْيِي الْمَوْتِ ﴾ أي لقادر على إحيائهم كما يحيي الأرض الميتة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا ﴾ أي ولئن أرسلنا على الزرع، بعد خضرته ونموه،

ريحاً ضارة مفسدة، وإنما قال ﴿ رِيحًا ﴾ لأنها مهلكة ومدمرة، وتسمى النافعة رياحاً، والضارة ريحاً، لأن النافعة كثيرة الهبوب، والضارة قليلة كريح السموم ﴿ فَرَأَوْهُ ﴾ أي فرأوا الزرع والنبات ﴿ مُصْفَرًّا ﴾ بعد خضرته وانتعاشه ﴿ لَظَلُّوا ﴾ اللام جواب القسم أي لاستمروا أي وبالله لئن أرسلنا ريحاً حارة، أو باردة، فضربت زرعهم بالصفار، فرأوه مصفراً ليظنن ﴿ مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾ أي يجحدون ما سلف من النعمة، من غير تلعثم، وفيه

ذمهم لسرعة تزلزلهم، فإن النظر السويّ يقتضي أن يتكلموا على الله، ويلجؤوا إليه بالاستغفار إذا احتبس القطر عنهم، ولا يئسوا من رحمة الله، وأن يصبروا على بلائه.

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ ﴿٥٢﴾ .

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَىٰ ﴾ أي لا تسمع هؤلاء الكفار لأنهم كالموتى، لانسداد مشاعرهم عن الحق ﴿ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ قيد الحكم به لأن الأصم إذا كان مقبلاً يفهم بالرمز والإشارة، فإذا ولّى، لا يسمع ولا يفهم، فقد جمعوا لخصليتي السوء: نبوّ أسمعهم عن الحق، وإعراضهم عن الإصغاء إليه، ولو كان أحدهما فيهم لكفاهم ذلك بلاء.

﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالِنِهِمْ إِنْ سَمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ﴿٥٣﴾ .

﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالِنِهِمْ ﴾ سَمَاهُمْ عمياً لفقدهم المقصود من الإبصار، أو لعمى قلوبهم ﴿ إِنْ سَمِعُ ﴾ أي ما تسمع ﴿ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ فإن إيمانهم يدعوهم إلى التدبر فيها، ويلقاها بالقبول ﴿ فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أي منقادون لأوامر الله تعالى.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ ﴿٥٤﴾ .

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ﴾ وهو النطفة ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ وذلك عند بلوغكم الحلم ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ أي هرمًا ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ المبالغ في العلم والقدرة.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ
كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ القيامة ﴿ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثُوا ﴾ أي ما مكثوا في
الدنيا ﴿ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ استقلوا مدة لبثهم نسياناً أو كذباً ﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل
ذلك الصرف عن الصدق ﴿ كَانَُوا يُؤْفَكُونَ ﴾ يصرفون عن الحق في الدنيا،
ويقولون: ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ
فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ ﴾ أي قال العقلاء من أهل العلم والإيمان
﴿ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ في علمه وقضائه ﴿ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ ﴾ ردوا بذلك ما
قالوه، وأيدوه باليمين، كأنهم من فرط حيرتهم لم يدروا أن ذلك هو
البعث الموعود، الذي كانوا ينكرونه، فرد العالمون مقاتلتهم وبكتوتهم
بالإخبار بوقوعها، حيث قالوا ﴿ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ الذي كنتم توعدون في
الدنيا ﴿ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أنه حق، فتستعجلون به استهزاءً .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ
يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ ﴾ أي عذرهم ﴿ وَلَا هُمْ
يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أي لا يُدعون إلى ما يقتضي استعتابهم، أي فلا يقال لهم
أرضوا ربكم بالتوبة والطاعة، كما دُعوا في الدنيا إليه .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أي وبالله لقد بينا للناس في هذا القرآن العظيم، ما يحتاجون إليه من المواعظ، والأمثال، والأخبار، ما يوضح الحق، ويزيل اللبس ﴿ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ ﴾ من آيات القرآن الناطقة بأمثال ذلك ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لفرط عتوهم وعنادهم ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ أي ما أنتم إلا مزورون تدجلون علينا وتكذبون.

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾ .

﴿ كَذَلِكَ ﴾ مثل ذلك الطبع ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يطلبون العلم، ولا يتحرون الحق، بل يضُرُّون على خرافات اعتقدوها، فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق، ويوجب تكذيب المحق.

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ ﴿٦٠﴾ .

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ على ما تشاهد منهم من السخرية والتكذيب ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ بنصرتك، وإظهار دينك على الدين كله، ولا بد من إنجاز وعده، وإظهار دينه ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ ﴾ لا يحملتك على الخفة والقلق مما تلقاه منهم من الأفعال السيئة، والأقوال الباطلة ﴿ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ بما تتلو عليهم من الآيات، ولا تترك الصبر لتكذيبهم وإيذائهم. والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيد المرسلين، وآله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الروم»

سُورَةُ الْقِسْمَانِ

وهي أربع وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ .

﴿الرَّ ١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ أي المحكم من التغيير والتبديل،
والمحكم في تشريعه وأحكامه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه .

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ٣﴾ .

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ٣﴾ أي هداية ورحمة للمؤمنين الذين أحسنوا
العمل في الدنيا واتقوا الله .

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤﴾ .

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤﴾ تخصيصُ
الثلاث لفضلها، وتكرير الضمير للتوكيد .

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٦﴾ .

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون بجميع أنواع

السعادة .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿٦﴾ .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ أي يستبدل ما يُلهي عن طاعة الله، ويصد عن سبيله، مما لا خير فيه ولا فائدة، كالأحاديث المضحكة، والأساطير التي لا اعتداد بها، والغناء الماجن، وسائر ما لا خير فيه من فضول الكلام، نزلت في «النضر بن الحارث» كان يشتري أخبار العجم، ويحدّث بها قريشاً ويقول: إن محمداً يحدّث بعاد، وثمود، وأنا أحدثكم بحدِيث رستم وإسفنديار، فيستملحون حديثه، ويتركون استماع القرآن، وقيل: هو شراء المغنّيات، وحملهن على معاشرة من أراد الإسلام لمنعه عن الدخول فيه، عن أبي أمامة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا القينات والمغنّيات، ولا تشتروهن، ولا تعلموهنّ، ولا خير في تجارة فيهن، وثمرهن حرام، وفي مثل هذا نزلت: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾^(١) الآية ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي عن دينه الحق، أو عن قراءة كتابه ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بغير حجة أو برهان ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ ويتخذ السبيل سخرية ﴿أُولَئِكَ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر ﴿هُمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لإهانتهم الحق، بإيثار الباطل، وترغيب الناس فيه .

(١) الحديث أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣١٩٣، وابن ماجه في التجارات رقم ٢١٦٨ باب ما لا يحل بيعه، وقال الترمذي: هذا حديث غريب .

﴿ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَوَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾ .

﴿ وَإِذَا نُتِلَىٰ عَلَيْهِ ﴾ أي على المشتري ﴿ آيَاتُنَا ﴾ أي آيات القرآن الكريم ﴿ وَوَلَّىٰ ﴾ أي أعرض عنها غير معتدِّ بها ﴿ مُسْتَكْبِرًا ﴾ مبالغاً في التكبر، لا يعبأ بها ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أي كحال من لم يسمعها ﴿ كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ أي مشابهاً بمن في أذنيه ثقل وصمم، لا يقدر أن يسمع، والوقر: الثقل والصمم الذي يمنع من السمع ﴿ فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي فأنذره بالعذاب المفرط في الألم، والأسلوب أسلوب تهكم وسخرية، لأن البشارة لا تكون بالعذاب.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أي صدَّقوا الله ورسوله، وآمنوا بما أنزل الله على رسوله من الآيات البينات ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي فعلوا الخيرات، فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ النَّعِيمِ ﴾ أي لهم نعيم الجنات، فعكس للمبالغة، وفي توحيد العذاب، وجمع الجنات، إشارة إلى أن الرحمة واسعة، أكثر من الغضب.

﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا ﴾ مصدران مؤكِّدان، لأن قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ في معنى وَعَدَّ اللَّهُ ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ لا يغلبه شيء، فيمنعه عن إنجاز وعده، ووعيده ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۗ وَالْقَنَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَىٰ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ
وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ۗ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ ۝ .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۗ ﴾ أي خلقها بغير دعائم، حال كونكم
ترونها كذلك ﴿ وَالْقَنَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَىٰ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أي كيلا تضطرب بكم
﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ۗ ﴾ أي من كل أنواع الحيوانات.. والدواب ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ من كل صنف كثير المنفعة، وكأنه
تعالى استدلل بذلك على عزته، التي هي كمال القدرة، وحكمته التي هي
كمال العلم، ومهدد به قاعدة التوحيد، وقررها بقوله سبحانه:

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي
ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾ ۝ .

﴿ هَذَا ﴾ أي ما ذكر من خلق السماوات والأرض وما فيهما من
البدائع ﴿ خَلْقُ اللَّهِ ﴾ أي مخلوقاته ﴿ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ ﴾؟ مما
اتخذتموهم شركاء له تعالى في العبادة؟ ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ إضراب
عن تبكيتهم بما ذكر، إلى التسجيل عليهم بالضلال المبين.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ۝ .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ وهو لقمان الحكيم عاش حتى أدرك داود
عليه السلام، والجمهور على أنه كان حكيماً، ولم يكن نبياً، ومن حكمته
أنه صحب داود عليه السلام أياماً، وكان يسرد الدروع، فلم يسأله عنها،
فلما أتمها ولبسها قال: «نعم لبؤس الحرب» ومن أقواله: «الصمتُ حكمةٌ

وقليلٌ فاعله» ومنها «القلب واللسان، هما أطيَّبُ شيءٍ إذا طابا، وأخبثُ شيءٍ إذا خبثا» قيل له: فبم بلغت ما بلغت؟ قال: «بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعني» ومنها قوله: «ليس مالٌ كصحة، ولا نعمةٌ كطيب نفس» قيل للقمان: أيُّ الناس أشْرُ؟ قال: «الذي لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً» ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِلَّهِ﴾ أي اشكر الله تعالى ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ﴾ له تعالى ﴿فَأِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ لأن منفعته تعود عليه ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن كل شيء، فلا يحتاج إلى الشكر، حتى يتضرر بكفران الكافر ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيق بالحمد، وإن لم يحمده أحد، أو محمود يحمده جميع المخلوقات.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ أي وهو ينصحه ويرشده ﴿يَبْنَىٰ﴾ تصغير إشفاق ورحمة ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي لا تجعل مع الله شريكاً، بشراً أو صنماً، ولا تعبد غير الله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ تعليلٌ للنهي، وسماه ظلماً لأنه وضع العبادة في غير موضعها. بدأ بالأقرب وهو ابنه، وبالأهم وهو المنع من الشرك، الذي هو أعظم الذنوب على الإطلاق.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ أي أمرناه أمراً مؤكداً، وعهدنا إليه بهذه الوصية، وهي الإحسان إلى والديه، وجاء هذا في أثناء وصية لقمان، تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك، كأنه قال: وقد وصينا بمثل ما وصي به، وذكر الوالدين للمبالغة في ذلك، فإنهما معاً اقترا ذكرهما مع الله تعالى في استحقاق التعظيم والطاعة، لا يجوز طاعتها في الإشراك بحالٍ

من الأحوال ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَتْأَ عَلَيَّ وَهْنٌ﴾ أي ضعفاً فوق ضعف، لأنها لا تزال يتضاعف ألمها، إذ الحملُ ضعفٌ، والطلقُ ضعفٌ، والرضاعةُ ضعفٌ ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ وهي مدة الرضاع، أي وفضامه في تمام عامين ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي﴾ تفسير لوصينا أي وصينا بشكرنا ﴿وَلَوْلَا ذِكُّكَ﴾ أي ويشكر والديه، لأن الوجود في الحقيقة من الله تعالى، والوالدان سبب لوجوده، فجعل الشكر بينهما ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ أي الرجوع إليّ لا إلى غيري، فأجازيك على ما صدر عنك.

﴿وَلِنْ جَهْدَاكَ عَلَيَّ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمُهُمَا
وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿وَلِنْ جَهْدَاكَ عَلَيَّ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ بشركته له تعالى في استحقاق العبادة ﴿فَلَا تُطْعَمُهُمَا﴾ في ذلك ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي وصاحبهما في الحياة الدنيا بالمعروف، صحبة يرتضيها الشرع، وتقتضيها المروءة ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ بالتوحيد، والإخلاص في الطاعة ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي مرجعك ومرجعهما ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ﴾ عند رجوعكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازي كلًّا منكم بما صدر عنه من الخير والشر.

﴿يَبْنِيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي
السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿يَبْنِيَّ﴾ شروع في حكاية بقية وصايا لقمان ﴿إِنَّهَا﴾ أي إن الخصلة من الإساءة والإحسان ﴿إِنْ تَكُ﴾ مثلاً في الصغر ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أي وزن حبة الخردل ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لو كانت في غاية الصغر، في أخفى مكان وأحرزه، كجوف الصخرة، أو

كانت السيئة التي يفعلها الإنسان في العالم العلوي، أو السفلي ﴿يَأْتِيهَا اللَّهُ﴾ أي يحضرها الله ويحاسب عاملها عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يصل علمه إلى كل خفي ﴿حَيْرٌ﴾ بكنهه، عالم ببواطن الأمور، والغرض من الآية: التمثيل بأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد.

﴿يَبْنِي أَقِيرَ الصَّلَاةِ وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿يَبْنِي أَقِيرَ الصَّلَاةِ﴾ بعدما أمره بالتوحيد، في ضمن النهي عن الشرك، ونبّه على كمال علم الله تعالى وقدرته، أمره بالصلاة، التي هي أكمل العبادات، تكميلاً له من حيث العمل، بعد تكميله من حيث الاعتقاد، وهذا دليل على أن التوحيد والصلاة، مأمورٌ بهما في سائر الأمم ﴿وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ تكميلاً لغيرك ﴿وَأَصْبِرَ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ من الشدائد والمحن، لا سيما فيما أمرت به ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر ﴿مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي مما فرضها الله تعالى، والجملة تعليل لوجوب الامتثال، بما سبق من الأمر والنهي، فهذه الخصال من عزائم الأمور، التي حضّ وحثّ عليها رب العزة والجلال.

﴿وَلَا تَصْعَرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿وَلَا تَصْعَرَ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي لا تمله، ولا تولّهم صفحة وجهك، كما هو ديدن المتكبرين، من الصّعر وهو داءٌ يصيب البعير، فيلوى منه عنقه يقال: صعّر خده أي أماله عن الناس، إعراضاً وتكبراً ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾ هو البطر مصدر وقع موقع الحال أي فرحاً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي يكره كل متكبر يفخر على غيره، وهو تعليل للنهي عن التكبر والخيلاء.

﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشِيكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (١٩).

﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشِيكَ ﴾ أي توسَّط بين البطء والإسراع، أما الإسراع فهو من الخيلاء، وأمَّا البطء فهو علامة الضعف، وكلا الطرفين مذموم، بل ليكن مشيك بين السكينة والوقار ﴿ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ أي اخفض من صوتك ولا ترفعه عاليًا، فإنه قبيح لا يجمل بالعاقل، ولهذا عبَّه بقوله: ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ أي أوحشها، على تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالبهايم، وفي الآية إشارة إلى التوسط في الأفعال والأقوال.

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ (٢٠).

﴿ أَلَمْ تَرَوْا ﴾ رجوع إلى سنن ما سلف، قبل قصة لقمان، من خطاب المكلفين، أي ألم تروا أيها الناس رؤية قلبية، كأنها مشاهدة بالبصر، إلى ما أنعم الله به عليكم ﴿ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ ﴾ أي محسوسة ومعقولة ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ ﴾ في توحيدهِ وصفاته ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي بغير علم مستفادٍ من الدليل ﴿ وَلَا هُدًى ﴾ من جهة الرسول ﷺ ﴿ وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ أنزله الله سبحانه، بل بمجرد التقليد، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْبَغُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٢١).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنْبَغُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ يريدون به عبادة الأصنام ﴿ أَوْلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ ﴾ أي يدعو آباءهم ﴿ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾؟ أي أتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم إلى ما هم عليه من الشرك والضلال؟ .

﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ .

﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ بأن فوّض إليه نفسه بكليته، ومعنى التسليم حيث عدّي باللام قصد معنى الإخلاص، كما في قوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾ أي خالصاً له، ومعناه مع ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ التفويض إليه تعالى ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ في أعماله ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ ﴾ أي تمسك وتعلق ﴿ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ أي بحبل الله المتين، والآية على التمثيل كأنه تمسك بحبل متين لا ينقطع ﴿ وَإِلَى اللَّهِ ﴾ لا إلى أحد غيره ﴿ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ لكل صائر إليه فيجازه أحسن الجزاء .

﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرَهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

﴿ وَمَنْ كَفَرَ ﴾ أي ومن لم يؤمن بالله، ولم يسلم له وجهه ﴿ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرَهُۥٓ ﴾ فإنه لا يضرك في الدنيا والآخرة ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ لا إلى غيرنا ﴿ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ في الدنيا من الكفر والمعاصي، ونأخذهم بالعذاب والعقاب ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أي لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم، فيفعل بهم على حسب ما يستحقون .

﴿ نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ ﴾ .

﴿نُمِنَعُهُمْ﴾ تمتيعاً ﴿قَلِيلًا﴾ زماناً قليلاً، أي نمهلهم ليتمتعوا بنعيم الدنيا، إلى انقضاء آجالهم ﴿ثُمَّ نَضَطَّرُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يثقل عليهم تحمُّله، ثقل الأجرام الغلاظ، حيث يُضْمُّ إلى الإحراق الشِدَّة، والتضييق، شبَّه تعالى إلزام التعذيب، باضطرار المضطر إلى الشيء المكروه، الذي لا تحبه النفس.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ .

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون عظمة الله وجلاله، وقدرته على الخلق والإحياء، فلذلك ينكرون وحدانيته وجلاله.

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي هو جلَّ وعلا المستغني عن الخلق وعبادتهم، المحمود في صنعه وآلائه.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ أي لو ثبت كون الأشجار التي في الدنيا صارت كلها أقلاماً ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من بعد نفادها ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي مداد، والخلائق يكتبون بتلك الأقلام، وبذلك المداد كلمات الله عزَّ وجل ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ لأنها لا نهاية لها، كما في قوله

تعالى: ﴿لَنفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُعجزه شيء أرادته ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر، فلا تنفذ كلماته المؤسسة عليهما.

﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَفِيسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

بَصِيرٌ ﴾ .

﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَفِيسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أي إلا كخلقها وبعثها، في سهولة التأتي، إذ لا يشغله تعالى شأن عن شأن، لأن مناط وجود كل شيء، تعلق إرادته العليا مع قدرته الذاتية، حسبما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُنَا لِيَشِيءَ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي يسمع كل مسموع، ويبصر كل مُبصر، لا يشغله إدراك بعضها عن بعض، فكذلك الخلق.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، وقيل: عامٌّ لمن يصلح للخطاب وهو الأوفق، أي ألم تعلم أيها الإنسان علماً قوياً جارياً مجرى الرؤية ﴿أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي يدخل ظلمة الليل على ضوء النهار، ويدخل ضوء النهار على ظلمة الليل، ويزيد في هذا فيطول، ويُنقص من هذا فيقصر، ولهذا يطول النهار في بعض الفصول وينقص، وتلك آية كونية. ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عطف على قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ﴾ داخل معه في حيز الرؤية، فإن من شاهد مثل هذا الصنع الرائق، لا يكاد يغفل عن كون صانعه عزَّ وجل، محيطاً بجلائل أعماله، ودقائقها.

﴿ ذَلِكِ يَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ ﴿٣٠﴾ .

﴿ ذَلِكِ يَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ ﴾ أي ذلك الوصف الذي وُصف به، من عجائب قدرته وحكمته، التي يعجز عنه الأحياء القادرون العالمون، فكيف بالجماد الذي يدعونه من دون الله؟ إنما هو بسبب أنه تعالى هو الحقُّ الثابتُ إلهيته، ولأجل بيان بطلان إلهية ما يدعونه من دونه تعالى ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ أي وبيان أنه تعالى هو المرتفع على كل شيء، فهو العليُّ في صفاته، الكبير في ذاته .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ﴿٣١﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ﴾ أي بإحسانه ولطفه في تهيئة أسبابه، وهو استشهادٌ آخر على باهر قدرته، فقد سَخَّرَ البحر لتجري فيه السفن الكبار، تحمل الأغذية والبضائع، من بلد إلى بلد، ومن قارة إلى قارة، تجري بهذه السفن الريح، والريخ من نعم الله تعالى ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ﴾ أي بعض آياته، وبعض دلائل وحدته ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي إن فيما ذُكر، آيات عظيمة، ودلائل باهرة، لكل من يبالغ في الصبر على المشاق، وفي الشكر على نعمائه تعالى، وهما صفتا المؤمن، فكانه قيل: لكل مؤمن، صابر شاكر .

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَحَثَهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ ﴿٣٢﴾ .

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ ﴾ أي علاهم وأحاط بهم الموجُ ﴿ كَالظَّلِيلِ ﴾ كما

يُظَلُّ الجبلُ، والسحابُ، يعني أن الموج الذي جاءهم كثيف مخيف، كالجبال هولاً وشدة ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي استغاثوا بالله، وأخلصوا الدعاء لله، لزوال ما ينازع الفطرة، من الهوى، والتقليد؛ وبما دهاهم من الهول والخوف الشديد ﴿فَلَمَّا بَجَدْتُهُمْ إِلَى الْبِرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ﴾ أي مقيم على القصد السوي، الذي هو التوحيد، وفي الآية حذف تقديره: ومنهم جاحد، بدليل قوله تعالى: ﴿وما يجحد بآياتنا...﴾.

نزلت في عكرمة بن أبي جهل، هرب عام الفتح إلى البحر، فجاءهم ريح عاصف، فقال عكرمة: لئن أنجانا الله من هذا، لأرجعن إلى رسول الله ﷺ فأبأعه على الإسلام، فسكت الريح، ورجع عكرمة إلى مكة، وأسلم وحسن إسلامه^(١). ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَّارٍ﴾ أي غدار، والختر: أشد الغدر ﴿كُفُورٍ﴾ أي مبالغ في كفران النعمة، يجحد فضل الله، ويكذب بآياته، وقليل من عباد الله الشكور!!.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ أي خافوا يوماً شديداً عصيباً، لا يقضي عنه شيئاً من التبعات، ولا يدفع عنه مضرة ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ أي ولا ولدٌ يدفع ويقضي عن والده شيئاً، ولا يتحمل عنه جنايته، وفيه قطع طمع من توقع من المؤمنين، أن ينفع أباه الكافر في الآخرة ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكن إخلافه

(١) الآية على العموم، فهي تعم كل كافر جاحد لفضل الله وإنعامه، وما ذكر من سبب النزول لا يمنع العموم، فإن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، كما ذكر في علم الأصول.

أصلاً ﴿فَلَا تَعْرِزْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْزَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ أي فلا تخدعكم الحياة الدنيا بزينتها ومفاتها ولذاتها، فتشغلكم عن طاعة الله وعبادته، ولا يخدعكم الشيطان المبالغ في الغرور للإنسان، بأن يحملكم على المعاصي، ويقول لكم: إن الله غفور رحيم، يغفر الذنوب جميعاً، فتركنا إلى وساوسه وأباطيله. والإنسان قد يكون ضعيف العقل، فيغترُّ بأدنى شيء من بهرج، وقد يكون قويَّ الجأش متين العقل، ولكن إذا جاءه غازٌ، وزين وحسن له ذلك الشيء قد يغتر، فقال الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْرِزْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ للدرجة الأولى من البشر، وقال: ﴿وَلَا يَعْزَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الإشارة إلى الثانية ليكون الإنسان محفوظاً من الاثنتين: فتنة الدنيا، وفتنة الشيطان اللعين.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي علم وقت قيامها، والمراد بالساعة مجيء يوم القيامة، فلا يعلمه أحد إلا الله، عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله» وتلا هذه الآية^(١). يحكى أن أبا جعفر المنصور رأى في منامه صورة ملك الموت، فسأله عن مدة عمره، فأشار بأصابعه الخمس، فعبرها له المعبرون بخمس سنوات، وبخمس أشهر، فاستدعى أبا حنيفة رحمه الله وسأله عن الرؤيا، فقال له: هو يشير إلى هذه الأشياء الخمس في الآية التي لا يعلمها إلا الله، وتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ..﴾ الآية. ﴿وَيُنزِلُ الْغَيْثَ﴾ في أيامه المقدرة له وبالكمية التي يريدتها الله ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أي يعلم سبحانه أذكر أم أنثى؟ أتام أم ناقص؟ ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب التفسير ٣٩٥/٨ وفي الاستسقاء.

مَاذَا تَكْسِبُ عَدًّا ﴿ من خير أو شر، ربما تعزم على شيء فتفعل خلافه ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ كما لا تدري في أي وقت تموت^(١)، ونسبة العلم إلى الله، والدراية إلى العبد، للإيذان بأنه وإن بذل وسعه في التعرف لم يعرف، لأنه لم ينصب له دليل، ثم لما في معنى الدراية من معنى الحيلة، والمعنى: إنها لا تعرف وإن أعملت حيلتها، يُقال: دريتُ الشيء أي عرفته وعلمته، أمّا المنجم الذي يخبر بوقت الغيث، والموت، فإنه يقول ذلك بالقياس، والنظر، وهو كذاب في هذا، ولهذا ورد في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ خَيْرٌ﴾ يعلم بواطنها، كما يعلم ظواهرها، لا تخفى عليه سبحانه خافية.

والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة لقمان»

(١) فإن قيل: لماذا لم يقل: «وما تدري نفس بأي وقت تموت» وإنما قال: ﴿بأي أرض تموت﴾ مع أن البحث عن وقت موت الإنسان؟ فالجواب: أن وجود الإنسان في مكان ما في وُسع الإنسان واختياره، واعتقاد علم مكان موته أقرب، ومع ذلك لا يعرف الإنسان موطن موته، ولا المكان الذي ستكون منيته فيه، فكيف يعرف وقت وفاته، هذا من باب أولى مستحيل، وإذا كانت وفاة إنسان في بلد ما قدره الله له، جعل الله إليه حاجة في ذلك البلد، حتى يتم القضاء المبرم، والله تعالى أعلم.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

مكية وهي ثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَمَّ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ .

﴿الْعَمَّ﴾ الحروف الهجائية المقطّعة، للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، كما وضحناه في أول سورة البقرة.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تنزيل بمعنى المُنزَل، أنزله عليك ربُّ العزة والجلال، أي هذا القرآن العظيم، لا شك أنه من عند الله، أنزله عليك يا محمد ربُّ العزة والجلال.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل يقولون يعني كفار مكة ﴿أَفْتَرْتَهُ﴾ أي اختلقه من تلقاء نفسه؟ وقد ردَّ الله عليهم ذلك، حيث جيء بأَمِ المنقطعة، إنكاراً له وتعجباً منه، لغاية ظهور بطلانه، واستحالة كونه مفترى، ثم أضرب عنه إلى بيان حقيقة ما أنكروه، فقال سبحانه ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ بإضافة اسم

الرب إلى ضميره ﷺ تشریفاً له، ثم أيد ذلك بيان غايته فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فإن بيان غاية الشيء وحكمته، مما يقرب وجود الشيء ويؤكد، وقد كانت قريش أضل الناس، وأحوجهم إلى الهداية، بإرسال الرسل، حيث لم يُبعث إليهم رسول قبله، أو قبل زمانه، إذ كانوا أهل الفترة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي كي يهتدوا إلى الدين الحق، والترجي معتبر من جهته ﷺ، أي لتنذرهم راجياً لاهتدائهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بجلاله ﴿مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ﴾ أي ما لكم إذا جاوزتم رضاه، أحد ينصركم أو يشفع لكم ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي ينجيكم ويخلصكم من بأسه وعذابه ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي ألا تسمعون هذه المواعظ فتذكرون بها فتؤمنون؟. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الأخبار الموهمة للتشبيه، من الصورة، واليد، والنزول، والاستواء على العرش، وما يجري مجراها، إن الحق فيها هو مذهب السلف أعني مذهب الصحابة والتابعين، ومن بلغه حديث من هذه الأحاديث يجب عليه سبعة أمور: التقديس، ثم التصديق، ثم الاعتراف بالعجز، ثم السكوت، ثم الإمساك، ثم الكف، ثم التسليم لأهل المعرفة. أما التقديس فأعني به تنزيه الرب تعالى عن الجسمية وتوابعها، وأما التصديق فهو الإيمان بما قيل، وأنه حق على الوجه الذي قاله سبحانه وأراد، وأما الاعتراف بالعجز فهو أن يُقر بأن معرفة مراده ليست على قدر طاقته، وأن ذلك ليس من حرفته، وأما السكوت فأن لا يسأل عن معناه، ويعلم أن سؤاله بدعة، وأن في خوضه مخاطرة في دينه، وأما الإمساك فأن لا يتصرف في تلك الألفاظ بالتصريف

والتبديل، والزيادة فيه والنقصان، بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ، وأما الكفُّ فأن يكفَّ عنه البحث والتفكر فيه، وأما التسليم لأهله فإن لا يعتقد أن ذلك خفي على الأنبياء والعلماء، كما قال الإمام أحمد: آيات الصفات وأحاديث الصفات، تُمرُّ كما جاءت، نُؤمن بالآية والخبر، ونكلُّ الكيفية في الصفات إلى علم علام الغيوب.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي يدبر أمر الدنيا، وينزل ما دبَّره وقضاه، بأسباب سماوية، من الملائكة وغيرها، نازلة بآثارها وأحكامها إلى الأرض ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي يصعد ذلك الأمر إليه ليحكم فيه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي برهة من الزمان، والمراد بيان طول امتداد ما بين تدبير الحوادث، وحدوثها من الزمان وقيل: يدبر أمر الدنيا جميعاً إلى قيام الساعة، ثم يعرج الأمر كله إليه عند قيامها في يوم كان مقداره ألف سنة، وسئل عنها ابن عباس رضي الله عنه فقال: «أيام سمَّها الله تعالى، لا أدري ما هي! والله أعلم بمراده».

﴿ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الله عز وجل، باعتبار اتصافه بما ذكر من الخلق، والاستواء والتدبير، أي ذلك العظيم الشأن ﴿عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي هو العالم للآخرة والدنيا، ولما هو غائب عن الخلق ومشاهد لهم، فيدبر أمرهما حسبما تقتضيه الحكمة ﴿الْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره ﴿الرَّحِيمُ﴾ على عباده، يدبِّر لهم شؤون الحياة.

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ ﴿٧﴾ .

﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ أي أتقن وأحكم كلَّ مخلوقٍ خلقه، إذ ما من مخلوقٍ خلقه الله، إلا وهو مرتبٌ على ما اقتضته الحكمة، وأوجبه المصلحة، وقيل: أحسن بمعنى ألهم، فالمعنى: ألهم خلقه كل شيء مما يحتاجون إليه، فيؤول إلى معنى قوله تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (١) ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴾ على وجه بديع تحار العقول في فهمه، حيث برأ آدم عليه السلام، على فطرةٍ عجيبة، منطوية على فطرة سائر أفراد الجنس، انطواءً إجمالياً، فخلقته من ترابٍ مجبول بالماء حتى صار طيناً، ويبس هذا الطين فصار صلصالاً له رنةٌ وصوت، ثم نفخ فيه الروح فصار بشراً سوياً.

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ ﴿٨﴾ .

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ﴾ أي ذريته ﴿ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ أي حقير وضعيف، وهو المنى والممتهن، السلالة: النسل والولد، سُميت به لأنها تنسل منه أي تنفصل.

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٩﴾ .

﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ ﴾ أي عدّله بتكميل أعضائه في الرحم، وتصويرها على ما ينبغي ﴿ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ إضافة الروح إليه سبحانه إضافة تشریف، كبيت الله، والنصارى يفترون على الله الكذب، ويقولون: بأن عيسى روح الله، فهو ابن الله، ولا يعلمون أن كل أحد روحه روح الله، أي ونفخ فيه

(١) سورة طه، آية: ٥٠.

وبين قوله تعالى: ﴿تَوَقَّهٖ رُسُلُنَا﴾ وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ﴾^(١) ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث للحساب والجزاء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾^(١٧).

﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ الخطاب للرسول ﷺ أو لكل أحد سامع ﴿إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ وهم القائلون. ﴿أَيْذًا ضَلَلْنَا﴾ أو جنس المجرمين الذين ارتكبوا صنوف الجرائم في الدنيا ﴿نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي مطرقو رؤوسهم من الحياء والخزي، عند ظهور قبائحهم التي اقترفوها في الدنيا ﴿رَبَّنَا﴾ أي يقولون يا ربنا ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي صرنا ممن يبصر ويسمع، وكنا من قبل عمياً وصماً، لا ندرك شيئاً ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾ حسبما تقتضيه أوامرك الإلهية، ونعبدك ولا نشرك بك أحداً ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ إذ لم يبق لنا شك بما شاهدنا، وكل ذلك طمعاً للإجابة إلى ما سألوه من الرجعة، وأنى لهم ذلك؟.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَكُنَّا بِحَقِّ الْقَوْلِ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(١٣).

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ أي لو تعلققت مشيئتنا بأن نعطي كل نفس ما تهتدي به إلى الإيمان، والعمل الصالح، لفعلنا ﴿لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ لأعطيناها إياه في الدنيا، التي هي دار الكسب إلى الإيمان، والعمل الصالح، لكن

(١) لا تعارض بين هذه الآيات ولا منافاة، فالله تبارك وتعالى هو المتوقّي، ومَلِكُ الموت عزرائيل يتولى قبضها بنفسه، ومعه أعوانه يساعده في الأمر، فصحت الإضافات كلها إلى الله سبحانه، وإلى ملك الموت، وإلى أعوانه.

لم نعطهم ذلك، لَمَّا عَلِمْنَا مِنْهُمْ اخْتِيَارَ الْكُفْرِ^(١) ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي سبقت كلمتي حيث قلت لإبليس عند قوله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي لأملأن جهنم بالعصاة المجرمين من الجن والإنس جميعاً، وفي تخصيص الإنس والجن، إشارة إلى أنه عصم ملائكته من العصيان، ودخول النيران.

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ الباء للإيذان بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق الوعيد، بل هو بسبب نسيانهم الدار الآخرة، وعدم العمل لها، أي ذوقوا هذا العذاب المخزي الأليم في دار الجحيم، بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ أي تركناكم في العذاب، ترك المنسيّ بالمرّة ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تكرير للتأكيد والتشديد، أي وذوقوا العذاب الخالد الدائم، بسبب ما كنتم تعملونه من فنون الكفر والمعاصي، وتكذيبكم بآيات الله.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ أي إنما يصدق بآياتنا، ويعتقد بها، المؤمنون الصادقون المتقون، لا الكفرة المجرمون ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا﴾ أي وُعظوا بها ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ أي سقطوا على وجوههم سجداً خوفاً من عذاب الله

(١) توضيح معنى الآية الكريمة: لو أردنا هداية جميع الخلق لفعلنا، ولكن ذلك ينافي حكمتنا، لأننا نريد منهم الإيمان بطريق الاختيار، لا بطريق الإكراه والإجبار، ولذلك لم نجبر أحداً على الإيمان!!

﴿ وَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي نزهوه عن كل ما لا يليق به، متلبسين بحمده تعالى على نعمائه، التي أجلها الهداية بإتياء الآيات، والتوفيق للاهتداء بها ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أي والحال هم خاضعون لجلال الله تعالى، لا يستكبرون عن السجود والتسبيح، والتحميد عن ابن عمر قال: «كان رسول الله يقرأ السورة التي فيها السجدة، فيسجد ونسجد معه، حتى ما يجد أحدنا مكاناً لوضع جبهته، في غير وقت الصلاة»^(١) وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدة، فسجد لها، اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويلتي أمرُ ابنُ آدمَ السجدة، فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيتُ فلي النَّارُ»^(٢).

﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾^(١٦)

﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ ﴾ أي ترتفع، وتتنحى ﴿ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ أي عن الفُرُش ومواقع النوم، وهم المتهجدون بالليل، وقال عطاء: هم الذين يصلُّون العشاء والفجر في جماعة، بدليل قوله ﷺ: «من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله»^(٣) وأشهر الأقاويل أن المراد منه صلاة الليل، لما روي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصيام بعد شهر رمضان، شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»^(٤) ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ أي داعين له تعالى ﴿ خَوْفًا ﴾ من سخطه ﴿ وَطَمَعًا ﴾ في رحمته ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ في وجوه الخير والحسنات.

- (١) أخرجه البخاري ٤٥٩/٢ ومسلم رقم ٥٧٥ باب سجود التلاوة.
(٢) أخرجه مسلم رقم ٨١ في كتاب الإيمان.
(٣) أخرجه مسلم رقم ٦٥٦ في المساجد وأبو داود رقم ٥٥٥ في الصلاة.
(٤) أخرجه مسلم في كتاب الصوم.

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾ من النفوس، لا ملك مقرَّب، ولا نبي مرسل، فضلاً عن عداهم ﴿ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ ﴾ أي لأولئك المتقين الصالحين ﴿ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ممَّا تَقَرَّبَهُ أَعْيُنُهُمْ ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ روى الشيخان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرؤوا ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ ﴾ الآية (١)» .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ﴾؟ أي أبعد ظهور ما بينهما من التباين، يُتوهم كونُ المؤمن الذي حُكيت أوصافه الفاضلة، كالفاسق (٢) الذي حُكيت أوصافه القبيحة؟ ﴿ لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ أي لا يتساوون عند الله في الشرف والمثوبة، والمال والجزاء .

﴿ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ ﴾ تفصيلٌ لمراتب

(١) أخرجه البخاري ٢٣٠/٦ في بدء الخلق ومسلم رقم ٢٨٢٤ وانظر جامع الأصول ٤٩٤/١٠ .

(٢) المراد بالفاسق هنا: الكافر، لأنه تعالى قابل به المؤمن، وأخبر أيضاً أنه يُخلد في النار، ولا يستحقُّ التخليد فيها إلا الكافر: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ وأما الفسقة من المؤمنين العصاة، فلا يخلدون في نار الجحيم، ونظير هذه الآية قوله سبحانه: ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾؟ المراد بالمجرمين الكفار لمقابلتهم بالمسلمين .

الفريقين في الآخرة، وإضافة الجنة إلى المأوى، لأنها المأوى الحقيقي،
وقيل: هي جنة من الجنات تأوي إليها أرواح الشهداء ﴿نَزَلًا﴾ أي ثواباً
﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الصالحة في الدنيا.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا
وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ خرجوا عن الطاعة ﴿فَمَأْوِيهِمُ﴾ أي منزلهم
ومسكنهم ﴿النَّارُ﴾ نار جهنم، مكان الجنة للمؤمنين ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا
مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ اللفظ عبارة عن الخلود فيها، فلا خروج ولا عودة في
الحقيقة، وكلمة «في» للدلالة على أنهم مستقرون فيها ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا
عَذَابَ النَّارِ﴾ أي تقول لهم خزنة جهنم إهانة لهم، وزيادة في غيظهم ذوقوا
عذاب جهنم الدائم ﴿الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ أي بعذاب النار على
الاستمرار في الدنيا، وهذا دليل على أن المراد بالفاسق الكافر، إذ
التكذيب يُقابل الإيمان.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٢١﴾ .

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلَدِّ﴾ عذاب الدنيا، وهو ما عوقبوا به من
القتل، والأسر، والقحط ونحو ذلك، وقيل: العذاب الأدنى عذابُ القبر
﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ وهو عذاب الآخرة، لأنه شديد ومديد، بخلاف
عذاب الدنيا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل الذين يشاهدون ممن بقي منهم،
يتوبون عن الكفر.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ
مُنْتَقِمُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾؟ استفهام إنكاري أي هو أظلم من كل ظالم، لأنه عرف الحق ثم صدَّ عنه ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي كل من اتصف بالإجرام، وإن هانت جريمته ﴿ مُنْقِمُونَ ﴾ فكيف ممن هو أظلم؟.

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ أي التوراة، وعبر عنها باسم الجنس ﴿ الْكِتَابَ ﴾ لتحقيق المجانسة بينها وبين الفرقان، والتنبيه على أن إيتاءه لرسول الله ﷺ كإيتائه لموسى عليه السلام، واختار من بين الرسل «موسى» لقربه، وإنما لم يختر عيسى عليه السلام للاستدلال، لأن اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته، وأمَّا النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام، فتمسك بالمجمع عليه ﴿ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ ﴾ أي من لقاء الكتاب الذي هو الفرقان، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ ﴾ والمعنى: إنا آتيناك من الكتاب، مثل ما آتيناه لموسى، فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أي الكتاب الذي آتيناه لموسى ﴿ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي هداية لبني إسرائيل من الضلالة والجهالة.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ ﴾ أي جعلنا منهم قادة يقتدى بهم في فعل الخيرات، ويهتدى بهم إلى طريق الحق ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ أي بأمرنا إياهم بذلك، وبتوفيقنا لهم إلى الطاعة ﴿ لَمَّا صَبَرُوا ﴾ أي لَمَّا صبروا جعلناهم أئمة، والمراد صبرهم على مشاق الطاعات، ومقاساة الشدائد في نصرة

الدين ﴿وَكَاثُوا بِتَائِبَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ لإمعانهم فيها النظر، والمعنى: كذلك لنجعلن الكتاب الذي آتيناك هدىً لأمتك، ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية، وفيه دليل على أن الصبر ثمرته إمامة الناس.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٢٥﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ أي يقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ أي بين المؤمنين والمشركين ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فيميز بين المحق وبين المبطل ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمور الدين.

﴿أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي السَّمْعِ﴾ ﴿٢٦﴾.

﴿أَوْلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾؟ أي أولم يبين الله لأهل مكة؟ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي كثرة من أهلكتهم من القرون الماضية، مثل: عاد، وثمود، وقوم لوط ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ أي يمرون في متاجرهم على ديارهم، ويشاهدون آثار هلاكهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ فيما ذكر ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة في أنفسها، كثيرة في عددها ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾؟ هذه الآيات، سماع تدبر وتفكر؟.

﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾.

﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾؟ أي التي جُرز نباتها، أي قطع ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ﴾ بالماء من تلك الأرض ﴿زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من ذلك الزرع ﴿أَنْعَامُهُمْ﴾ كالتبن، والعصف، والورق، وبعض الحبوب المخصصة

بها ﴿وَأَنفُسَهُمْ﴾ كالحبوب التي يقات بها الإنسان والثمار ﴿أَفَلَا يَبْصُرُونَ﴾؟
أي ألا ينظرون فلا يبصرون ذلك؟ ليستدلوا به على كمال قدرته تعالى؟.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ كان المسلمون يقولون: إن الله تعالى سيفتح لنا على المشركين، وكان أهل مكة إذا سمعوه يقولون تكديباً واستهزاء ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ أي النصر علينا أي في أي وقت يكون؟ ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ في أن الله ينصركم علينا؟.

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿قُلْ﴾ تبكيئاً لهم، وتحقيقاً للحق ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي يوم القيامة، وهو يوم الفصل، والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم، للتنبيه على أنه ليس مما ينبغي أن يسأل عنه، لكونه أمراً بيناً، وإنما المحتاج إلى البيان عدم نفع ذلك الإيمان، كأنه قيل لا تستعجلوا، فكأنني بكم قد آمنتكم، فلم ينفعكم إيمانكم في ذلك اليوم العصيب؟.

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبال بتكذيبهم ﴿وَأَنْظِرْ﴾ النصره عليهم وهلاكهم ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ بك حوادث الزمان، رُوي عن أبي هريرة قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿أَلَمْ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ و ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾^(١) وعن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ

(١) أخرجه مسلم رقم ٨٧٩ في الجمعة، وأبو داود رقم ١٠٧٤ في الصلاة.

كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿أَلَمْ تَنْزِلُ الْكِتَابَ﴾ و ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ (١).

والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده، وأسرار كتابه، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة السجدة»

* * *

(١) أخرجه الترمذي في سننه.